نجيب محفوظ

كفاح أحمس

تيسير وتبسيط محمد المعلم

الغلاف والرسوم : مصطفى حسين

دار الشروق

كفاح أحمس

ميسرة و مبسطة

رواية الكاتب الكبير نجيب محفوظ ،
نقدمها بنفس لغتها ميسرة للناشئين ،
ليقرأوها بفهم تام ، واستمتاع بأحداثها كاملة ،
وسعادة بتجاوزهم قراءة القصة إلى قراءة الرواية .

محمد المعلم

الطبعـة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت ص ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

١

لم تكن حياة الأسرة الفرعونية فى المهجر ، حياة دعة وخمول ، بل كانت حياة عمل وإعداد للمستقبل البعيد . وكانت الأم توتيشيرى محور هذه الحياة . لم تعرف اليأس أو الراحة . طلبت ، فور قدومها ، من الحاكم رءوم أن يجمع المهرة من الصناع النوبيين ، والفنيين المصريين المقيمين بالنوبة . وطلبت من الملك كاموس أن يعهد إليهم بصنع السلاح والخوذات والثياب الحربية ، وبناء السفن وعجلات القتال . وكانت تقول له :

ـ سيجىء اليوم الذى تهجم فيه على العدو الذى اغتصب عرشك ، وامتلك بلادك . فينبغى أن تهجم بأسطول كبير ، وبقوة من العجلات لا تقهر .. كما فعل العدو مع أبيك .

وتحوّلت نباتا ، فى أثناء السنوات العشر ، إلى مصنع كبير لصناعة السفن والعجلات والآلات الحربية بجميع أنواعها .

فلما جاء الرجال فى القافلة الأولى ، وجدوا السلاح والعتاد جاهزا متوفّرا . فأقبلوا على التدريب بقلوب يملؤها الحماس والأمل ، بعد أن انخرطوا جميعا فى سلك الجندية . وأخذوا يتدربون على فنون القتال ، واستعمال مختلف الأسلحة ، تحت إشراف ضباط الحامية المصرية التى بقيت ـ بعد الغزو ـ فى النوبة .

ولم يأخذهم ـ فى التدريب ـ رفق أو هوادة . فكانوا يعملون من مطلع الفجر إلى غروب الشمس . وكانوا يعملون جميعا لا فرق بين كبير وصغير . وكان الملك كاموس يشرف بنفسه على تدريب الجنود ، وتكوين الفرق ، واختيار الصالحين

للأسطول . وكان ولى العهد أحمس يعاونه . وأصرّت الملكات الثلاث والأميرة الصغيرة على أن يعملن مع العاملين . وكان منظر الأم توتيشيرى رائعا ، وهى منكبّة على عملها بهمة لا تعرف الملل ، أو سائرة بين الجنود ، تشاهد تدريبهم وتلق عليهم كلمات الحماس والأمل . وكان الرجال قد انقلبوا بفضل التدريب إلى وحوش كاسرة . وكانوا ، عندما يرونها ، ينسون أنفسهم ، ويشتعلون حماساً وإقبالا على التدريب ، وكانت تبتسم استبشاراً ، وتقول لهم :

ـ استعدوا يارجال طيبة للمعركة . سوف يكون على الواحد منكم أن ينقضّ على عشرة من الرعاع ، فينزل الرعب فى قلوبهم .

وانصرف الحاجب حور إلى إعداد القافلة الثانية . فضاعف عدد السفن لها . وملأها بالذهب والفضة والأقزام والحيوانات الغريبة . ورأت الأم توتيشيرى أن يحمل معه جماعات من النوبيين المخلصين ، ليهديهم إلى غزاة طيبة . فيكونوا عبيداً فى الظاهر ، وأعواناً فى الباطن ، يطعنون العدو من الخلف عند الاشتباك معه . وأعجبت الفكرة الملك كما أعجبت الحاجب حور ، وعمل على تحقيقها بغير تردد .

وانتهى حور من إعداد القافلة . وانتظر الجميع الإذن بالسفر . وكان الأمير أحمس ينتظر هذه الساعة ، بقلب أضناه الشوق والهوى ، ليرحل على رأس القافلة . ولكن الملك كان قد علم بالأحداث والأخطار التى تعرض لها فى القافلة الأولى ، فلم يرض أن يجازف بسفره مرة أخرى . وفاجأه بقوله :

ـ واجبك الآن ، أيها الأمير ، يدعوك للبقاء فى نباتا .

كان وقع المفاجأة على الأمل المضطرم فى صدره كوقع الماء البارد على جمرة متّقدة . فقال للملك برجاء صادق :

ـ رؤية مصر والاختلاط بأهلها ، شفاء لما فى قلبى يامولاى .

فقال الملك :

ـ ستجد الشفاء التام ، يوم تدخلها غازيا ، على رأس جيش الخلاص .

عاود الشاب الرجاء ، ورد الملك بحزم :

ـ لن يطول انتظارنا . فاصبر حتى تأذن ساعة الكفاح .

أدرك الشاب من لهجة الملك أنه قال كلمته الأخيرة ، فحنى رأسه بالتسليم

صفحة فارغة

والقبول . وتجلّد ومضى إلى المعسكر حيث يتدرب الرجال ، وقلبه حزين كئيب .

كان أحمس يقضى نهاره فى العمل الشاق . ولم يكن يظفر إلا بساعة قصيرة قبيل النوم ، يخلو فيها إلى نفسه ، ينادى حلو الذكريات ، ويحوم بخياله حول المقصورة الجميلة فى السفينة الفرعونية ، التى شاهدت ساعة الوداع ، ويتخيل أنه يسمع الصوت الرخيم يتمتم قائلا « إلى الملتقى » . ثم يتنهّد من أعماق قلبه ، ويقول أسيفا محزونا : أين الملتقى ؟ إنه كان الوداع الذى لا لقاء بعده .

واستطاعت نباتا ، رويدا رويدا ، أن تُنْسِىَ الشاب نفسه وهمه ، وأن ينشغل بما هو أجل وأخطر . وكان الرجال يعملون جادين بغير انقطاع . ومرت بهم الأيام وهم لا يصدقون أن فى الدنيا شيئا غير العمل ، أو أن فى الغد شيئا سوى الأمل .

وعادت القافلة برجال جدد يهتفون لمصر كما هتفوا هم يوم مجيئهم ، ويصيحون متلهفين مثلهم : أين مليكنا كاموس ؟ وأين أمنا توتيشيرى ؟ وأين أميرنا أحمس ؟ ثم ينضمون إلى المعسكر يعملون ويتدربون .

وجاء الحاجب حور إلى الأمير أحمس وحيّاه . ثم مدّ له يده برسالة ، وقال :

ـ طُلِبَ منى أن أحمل هذه الرسالة إلى سموك .

فسأله أحمس وهو يتناولها دهشاً :

ـ من مُرسلها ؟ .

لزم حور الصمت فى وجوم . فخطر للأمير خاطر خفق له قلبه . وفضّ الرسالة ، وقرأ التوقيع . فارتعدت مفاصله ، واشتدت ضربات قلبه ، وجرت عيناه على أسطر الرسالة . إنها تحمل إليه عتابا ذكيا بطريقة غير مباشرة . فهى تتحدث عن قزم من أقزامه أَنِسَتْ به وأَنِسَ بها ، هرب ولم يعد ؟ وتسأله : هل لك أن تبعث إلىّ بقزم جديد يعرف الوفاء ؟ .

عند انتهائه من قراءة الرسالة ، أحس بطعنة نجلاء تصيب قلبه ، وبالأرض تتحرك تحت قدميه . ومضى فى سبيله محزونا كسير الفؤاد ، يقول لنفسه : هيهات إن تدرى بما منعه من العودة إليها . وسترى فيه دائما القزم عديم الوفاء .

وانطوى على آلامه ، لا يحس به إلا أقرب الأفئدة إليه ، نيفرتارى . فاحتارت من أمره ، وعجبت ماذا يكمن وراء ذهوله ، وشروده ، ونظرة الحزن التى تلوح فى

عينيه الجميلتين. وذات مساء، قالت له:

ـ لست كعهدى بك ياأحمس.

فاضطرب لملاحظتها، وداعب ضفائرها بأنامله، وقال مبتسما:

ـ التعب ياحبيبتى.. ألا ترين ما نحن فيه من كفاح يهد الجبال؟.

فهزت رأسها، ولم تقل شيئا.. وغدا أحمس أشد حذرا. على أن نباتا لم تكن لتترك إنسانا يغرق فى أحزانه. فالعمل قاهر الأحزان. وقد شهدت من معجزات العمل ما لم تشهده من قبل ولا من بعد. تُدّرب الرجال، وتصنع السفن والعجلات والسلاح، وترسل القوافل محملة بالذهب لتعود محملة بالرجال.

ومضت الأيام والشهور الطوال، إلى أن جاء اليوم المرتقب السعيد. فقصد الملك كاموس إلى جدته توتيشيرى، وهو لا يتمالك من الفرح. ولثم جبينها، وقال بصوت متهدّج.

ـ أبشرى ياأماه.. تم إعداد جيش الخلاص.

٢

دقت طبول الرحيل، فانتظمت فرق الجيش، ورفع الأسطول مراسيه. وودعت الأم توتيشيرى الملك وولى العهد وكبار القواد والضباط، وقالت لهم:

ـ هذا اليوم السعيد.. طال انتظارى له. فأبلغوا جنودكم البواسل أن توتيشيرى تضرع إليهم أن يحطموا الأغلال التى تطوّق أعناق مصر. وليكن شعاركم جميعا أن تحيوا حياة أمنحتب أو تموتوا ميتة سيكننرع. بارككم الرب آمون، وثبّت قلوبكم.

فقبل الرجال يدها، وقال لها الملك كاموس:

ـ سيكون هذا شعارنا جميعا. وسيموت من يموت منا أشرف ميتة، ويحيا من يبقى منا أعزّ حياة.

وخرجت نباتا، وعلى رأسها الأسرة الفرعونية والحاكم رعوم، تودّع الجيش الصاخب. ودقت الطبول، وعزفت الموسيقى، وتحرك الجيش، تتقدمه قوة الكشافة تحمل الأعلام، ويسير الملك فى طليعته وسط هالة من الحاشية والحجاب والقواد،

يتبعها الحرس الفرعونى فى عجلاته الأنيقة . ثم تقدمت فرقة العجلات الجبارة تسير صفوفا صفوفا لا يحدّها البصر ، تبعث عجلاتها فى الجو صلصلة تصمّ الآذان ، وتليها فرقة القسىّ الثقيلة بأقواسها ودروعها وجعبات السهام ، تتبعها فرقة الرماح المدربة برماحها وتروسها ، ثم فرقة الأسلحة الخفيفة ، فعربات السلاح والمؤن والخيام تحرسها الفرسان . وأبحر كذلك الأسطول بسفنه الجبارة ، وقد استعد الجنود عليه بكامل معداتهم من القسىّ والرماح والسيوف .

تقدمت هذه القوات جميعها على أنغام الموسيقى ، تتقد الحماسة فى قلوبها الفتية الغاضبة ، ويلقى منظرها الرعب فى النفوس . تقطع النهار سيرا ، وتهجع وتنام بعد أن يحل الظلام . لا تكل ولا يصيبها الإعياء ، مستعينة على مشاق الرحلة بعزائم تزحزح الجبال . ومازالوا يضربون فى الأرض حتى بلغوا دابور آخر بلدان النوبة فى الشمال . ونسمت على وجوههم روح مصر الطيبة ، فعسكروا ، وأقاموا الخيام ليستريحوا من وعثاء السفر ، ويأخذوا أهبتهم للنضال .

ودبّر الملك مع رجاله خطة الغزو الأولى ، وأحكموا التدبير . وعهد إلى أحمس أبانا ــ وكان أمهر رجال الأسطول كافة ــ بقيادة جزء من الأسطول ليسير به إلى حدود مصر ، على أنه قافلة مما ألِف حراس الحدود مرورها . وعند فجر اليوم الرابع ، أبحر الأسطول الصغير ، فبلغ الحدود المصرية عند إشراق الصباح ، وكان أحمس أبانا يقف على ظهر السفينة فى ثياب التاجر الفضفاضة ، فأبرز جواز الدخول للحراس ، ودخل بأسطوله فى سلام . وكان أحمس يعلم أن قوة حراسة الحدود مكونة من سفن قليلة وحامية صغيرة . فكانت خطته ترمى إلى مفاجأة هذه السفن والاستيلاء عليها ، ثم ضرب الحصار حول جزيرة بيجة حتى يدخل الجيش والأسطول أرض مصر . فيسهل ضرب سيبين قبل أن تأخذ استعدادها .

وتقدمت القافلة فى خط أفقى ، فلما اقتربت من شاطئ بيجة الجنوبى ، حيث ترسو سفن الحراسة ، ظهر الجنود على سطح القافلة وبأيديهم القسىّ ، وخلع أحمس عباءة التجار فبدا فى ثياب الضباط . وأمر بإطلاق السهام على حرس السفن ، واقترب أسطوله الصغير بسرعة من السفن الراسية ، وانقض عليها ، وألقى عليها شباكه ، وقفز الجنود إلى سطحها ليستولوا عليها ، واشتبكوا مع الحراس القليلين فيها

صفحة فارغة

فى معركة صغيرة ، وأبادوهم فى زمن يسير . وفى أثناء ذلك كانت سفينة أحمس تطلق سهاما على حرس الشاطئ لتمنعهم من معاونة زملائهم فى السفن . فتم الاستيلاء على سفن الحراسة بسرعة ، وضرب الأسطول الصغير الحصار حول الجزيرة . وتنبهت حامية بيجة إلى الحركة الخاطفة ، فأسرعت إلى الشاطئ ، ولكنها وجدت نفسها حبيسة محصورة وأن سفن الحراسة قد وقعت فى الأسر .

ولم يمض وقت كبير على انتهاء المعركة ، حتى بدت وحدات بقية الأسطول المصرى فى الأفق قادمة صوب الحدود . ثم اجتازتها دون مقاومة . وانضمت إلى أسطول أحمس أبانا ، وأصبحت الجزيرة وسط دائرة من السفن الضخمة ، مما اضطر حامية بيجة إلى التقهقر إلى قلب الجزيرة ، بعيدا عن مرمى سهام الأسطول التى انهالت عليها من جميع الجهات .

ثم دخلت طلائع الجيش الحدود ، تتبعها الفرق ذات الكثرة والجلبة ، أدرك المحاصرون فى بيجة أن القادمين غزاة ، وليسوا قراصنة كما توهموا أول الأمر . ثم أصدر قائد الأسطول فكاف أمره بالهجوم على الجزيرة ، فانقضت عليها السفن من جميع الجهات ، وأنزلت الجنود المدججين بالسلاح ، تحت حماية الأقواس والسهام . وزحف الجنود من جميع النواحى نحو الحامية . ورأى جنودها تدفق القوات المصرية فى البر والنيل ، فخذلتهم شجاعتهم وألقوا السلاح وسلموا أنفسهم أسرى .

وكان أحمس أبانا على رأس المهاجمين ، فدخل قصر الحاكم دخول المنتصر ، ورفع عليه الأعلام المصرية ، وأمر بالقبض على الجنود والأعيان والموظفين الرعاة .

ورأى أهل الجزيرة ، من الفلاحين والعمال ، الجنود المصريين فلم يصدقوا أعينهم . وهرعوا نساء ورجالا إلى قصر الحاكم الجديد . فخرج إليهم أحمس أبانا ، وقال لهم :

ـ حباكم الرب آمون ، حامى المصريين وقاهر الرعاة فوقعت كلمة آمون وقع السحر فى آذانهم ، وقد حرموا سماعها عشرة أعوام ، وأضاء الابتهاج وجوههم ، وتساءل بعضهم :

ـ هل جئتم حقا لإنقاذنا ؟

فقال أحمس أبانا بصوت متهدج :

- وإنقاذ مصر المستعبدة . فأبشروا . ألا ترون هذه القوات الهائلة ؟ إنها جيش الخلاص .

فهتف القوم طويلا . ثم صلوا صلاة جامعة ، تصاعد فيها الدعاء إلى آمون فى السماء ، وكاموس فى الأرض .

٣

فى إشراق الضحى ، نزل الملك كاموس ومعه ولى عهده والحاجب حور وأفراد الحاشية ، إلى أرض الجزيرة . فاستقبله أهلها استقبالا حماسيا . فحياهم بيديه ، وتحدث إلى جمع غفير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم ، وأكل ما قدموه له من الدوم والفاكهة .

وأصدر الملك أمره بتعيين سمار ، أحد رجاله المخلصين ، حاكما على الجزيرة . وعهد إليه بنشر القانون والعدالة .

وأجمع القواد على وجوب مفاجأة سيبين عند الفجر ، ليضربوها الضربة القاضية قبل أن تفيق من ذهولها .

ونام الجيش مبكرا ، واستيقظ عند الفجر . ثم زحف نحو الشمال ، ومعه الأسطول يسد منافذ النيل ، واقتربوا من سبين . وأصدر كاموس أمره إلى الأسطول بضرب الحصار على الساحل الغربى للمدينة ، وإلى القوات لتزحف وتهجم على المدينة من ثلاث جهات فى وقت واحد . وكان يقود العجلات ضباط قدماء يعرفون المدينة ومواقعها ، فأوقعوا بالعدو مذبحة سالت فيها الدماء أنهارا . وتساقط الرعاة كأوراق الخريف اليابسة التى هبت عليها رياح عاصفة . أما الأسطول فلم يلق مقاومة ، واستولى على الشاطئ . وأنزل قوات من جنوده ، فهجموا على القصور وقبضوا على أصحابها ، وكان بينهم حاكم المدينة وقضاتها وكبار أعيانها .

وكانت المفاجأة عاملا حاسما فى المعركة . فما إن ارتفعت الشمس فى الأفق ، حتى كانت جموع الغزاة تحتل الثكنات والقصور وتسوق الأسرى . وشوهدت الجثث ملقاة فى الطرق وفى الثكنات وقد سالت دماؤها . وذاع فى أرجاء المدينة والحقول

القريبة ، أن كاموس بن سيكننرع اقتحم سيبين بجيش جرار واستولى عليها .

فاشتعلت على الفور ثورة دامية ، وهاجم الأهلون بيوت الرعاة يقتلونهم ، فهام كثيرون منهم على وجوههم فزعين ، كما فعل المصريون ، من قبل ، حين زحف أبوفيس من الشمال بعجلاته .

وقبض الجيش على ناصية الحال ، ودخل الملك كاموس على رأس جيشه ، تخفق على رأسه الأعلام المصرية ، وتسير بين يديه قوات الحرس بموسيقاها ، فهب أهل سيبين يستقبلونه . وكان يوما مجيداً ..

وتقدم عدد غفير من شباب المدينة يطلبون التطوع فى الجيش بحماسة فائقة . فسرّ كاموس ، وولى على المدينة شاو أحد رجاله . وأمره أن ينظم المتطوعين ويدرّبهم لينضموا إلى الجيش . وأحصى القواد ما غنموه من العجلات والجياد ، فإذا هو شىء عظيم .

واقترح الحاجب حور على الملك ، أن يتقدموا دون توانٍ ، حتى لا يدعوا للعدو مهلة للاستعداد وحشد الجيوش . وقال :

ـ سنخوض أول معركة حقيقية فى أمبوس .

فقال كاموس :

ـ نعم ياحور ، ولا يستبعد أن يكون عشرات الفارين قد طرقوا أبواب أمبوس الآن ، فتضيع علينا المفاجأة . فهيا إلى المسير .

وزحفت القوات المصرية ـ البرية والنيلية ـ صوب الشمال فى طريق أمبوس . ولم تلق أية مقاومة فى القرى الكثيرة التى دخلتها . وعلم الملك أن الرعاة يحملون متاعهم ويسوقون حيواناتهم فارين إلى أمبوس .

وخرج الفلاحون يستقبلون جيش الخلاص ، ويحيون مليكهم ، ويدعون له من قلوب أنعشها الفرح والأمل .

وسار الجيش حتى اقترب من أمبوس . وجاءت طلائع الكشافة تفيد بأن العدو يعسكر فى جنوب المدينة متأهباً للقتال ، وأن أسطولا متوسط العدد يرسو غرب أمبوس . فأدرك كاموس أن أول معركة مهمة باتت على الأبواب . ورغب الملك فى أن يعرف عدد جنود عدوه . ولكن تعذّر ذلك على الكشافة . واختلف الرأى بين

قائد شاب يدعى محب ، وبين الحاجب حور . الأول يقدرهم ببضعة آلاف . والثانى يراهم أكثر ، ويرجّح أن الرعاة جعلوا من أمبوس مركزا للدفاع عن البلاد المجاورة للحدود .

فقال الأمير أحمس :

ـ أرى ، يامولاى ، أن نهاجم بقوات كثيفة لا تقاوم ، وأن نقذف بمعظم قواتنا فى المعركة لنضرب العدو الضربة القاضية فى أقصر وقت . فنذهل قواته التى يحشدها فى طيبة الآن ، وتفزع وتحس أن الموت ينتظرها فى قتالنا . ولا خوف علينا من المخاطرة ، فجيشنا سوف يتضاعف بالمتطوعين الذين سينضمون إليه فى كل بلد نستردّه . أما عدونا فلن يجد عوضا عن خسارته .

وصار الجيشان لا يفصل بينهما سوى ميدان فسيح . وكان الرعاة رجال حرب ونزال . وكانوا يستهينون بالمصريين استهانة متأصلة . فبدأوا بالهجوم عليهم ، وهم يجهلون قوتهم ، وأرسلوا عليهم فرقة العجلات المكونة من مائة عجلة حربية .

أصدر كاموس أمره بالهجوم المضاد . فاندفعت قوات من العجلات تزيد على ثلاثمائة ، وأطبقت على قوات العدو . وصهلت الخيل ، ودار قتال عنيف . وعزم الأمير أحمس على أن يقضى على العدو القضاء المبرم ، فاندفع بمائتى عجلة جديدة ، وتبعته قوات من فرقة القسىّ وأخرى من حملة الرماح . وانقضت العجلات على مشاة الرعاة ، فاخترقت صفوفهم ، وألقت فيها الاضطراب والفزع ، وانهالت عليهم بالسهام كالمطر ، فتشتت شملهم بين قتيل وجريح وهارب ، فتلقفتهم قوة المشاة المهاجمة ـ فى كثرة لا تقاوم ـ وقضت عليهم القضاء الأخير . وذُهِل العدو الذى لم يكن يتوقع أن يلاقى قوات بهذا العدد . وانهارت قواته سريعا ، وتساقط فرسانه ، وتحطّمت عجلاته ، وسيطر المصريون على الميدان فى زمن يسير لا يُصدّق .

وقف الملك كاموس وسط الميدان على عجلته ، يحيط به القواد ، وإلى يمينه الأمير أحمس وإلى يساره الحاجب حور . وكانت الأنباء قد جاءته بأن أسطوله هاجم سفن العدو بشدة ، وأنها تقهقرت أمامه بدون انتظام . فسرّ الملك وقال لمن حوله مبتسماً :

ـ بدء موفق .

فقال الأمير أحمس ، وكان معفر الثياب ، مغبّر الوجه ، متصبّب الجبين عرقا :

ـ أتوق لمعارك أشد هولا .

فقال له كاموس ، وهو يلقى نظرة إعجاب على وجهه الجميل :

ـ لن يطول انتظارك .

ثم نزل الملك عن عجلته وتبعه رجاله ، وسار حتى صار وسط جثث الرعاة ، وألقى عليها نظرة ، وقد خضبت الدماء وجوهها البيضاء ولحيّها الكثة ، ومزّقتها السهام والرماح . ثم نظر إلى من حوله ، وقال بصوت فيه بأس وقوة :

ـ ستمتحن قوتنا فى معركتين شديدتين .. فى طيبة وهواريس .

فإذا انتصرنا فيهما طهّرنا الوطن من الرعاة إلى الأبد ، ورددنا مصر إلى عهد أمنمحتب المجيد . فمتى نقف موقفنا هذا فى هواريس .. آخر حصن للرعاة ؟ .

وتحوّل الملك ليرجع إلى عجلته . وفى تلك اللحظة ، انتصبت جثة ـ من بين الجثث ـ واقفة بسرعة البرق ، وسدّدت قوسا نحو الملك وأطلقت سهما .

ولم يكن فى الوسع منع القضاء ، فأصاب السهم صدر الملك ، وصرخ الرجال حوله صرخة الفزع ، وأطلقوا السهام على رجل الهكسوس ، وهرعوا إلى الملك بقلوب يملؤها الرعب والإشفاق . وكان كاموس ، قد أطلق من صدره آهة عميقة ، ثم ترنح وسقط بين يدى وليّ عهده أحمس . فصاح الأمير :

ـ أحضروا هودجا ، وادعوا الطبيب .

ومال برأسه على أبيه ، وقال بصوت متهدّج :

ـ أبتاه .. أبتاه .. ألا تستطيع أن تكلمنا ؟ .

وجاء الطبيب على عجل ، ومعه الهودج . فحملوا الملك وأناموه عليه فى عناية بالغة . وركع الطبيب إلى جانبه ، ومضى يخلع درعه وسترته ليكشف عن صدره . وأحاطت الحاشية بالهودج فى سكون ، يدورون بأعينهم بين وجه الملك الشاحب ويدى الطبيب .. نزع الطبيب السهم ، وكان الدم يتدفق من الجرح بغزارة . فتقلص وجه الملك من الألم . فأظلمت عينا الأمير أحمس من الحزن ، وتمتم حوّر قائلا :

ـ رباه .. الملك يتألم .

وغسل الطبيب الجرح . ووضع عليه الحشائش . ولكن الملك لم يبد عليه أى

صفحة فارغة

تحس . وارتعشت أطرافه ، ثم تنهدّ تنهدة عميقة ، وفتح عينيه ، فلاحت فيهما نظرة قاتمة لا تدل على الحياة .

فازداد صدر أحمس انقباضًا ، وحرّك الملك عينيه حتى استقرّتا على وجه أحمس . فلاحت فيهما ابتسامة ، وقال بصوت ضعيف يكاد لا يسمع :

ـ ظننت قبل حين أنى سأبلغ هواريس ، ولكن الرب يريد أن تنتهى رحلتى على أبواب أمبوس .

فصاح أحمس بصوته الحزين :

ـ فدتك نفسى يا أبتاه ..

فقال الملك بصوته الضعيف :

ـ كلا . احفظ نفسك . فما أشد الحاجة إليك .. وكن أشد حذرًا منى .. وواصل الكفاح ، حتى تسقط هواريس حصن الرعاة الأخير ، ويجلو القوم عن كل ديارنا .

وخشى الطبيب على الملك من جهد الكلام، وأشار عليه بالسكوت. ولكن الملك كان يندمج فى إحساس علوى، فقال بصوت تغيّرت نبراته، وبدا له وقع غريب :

ـ قل لتوتيشيرى إنى لحقت بأبى .. باسلاً مثله .

ومد يده لابنه ، فركع الأمير على ركبتيه ، وضمّها إلى صدره ، وقبض الملك على منكبه يودعه . ثم تراخت أصابعه وأسلم الروح ...

٤

غطى الطبيب الجثة ، وسجد الرجال حولها ، وصلوا صلاة الوداع . وجاء القواد ، فحيوها وانحنوا لأحمس .. الملك الجديد .

ودخل الجيش أمبوس ، يتقدمه نعش الملك كاموس . وكان الخبر الفاجع قد عمّ المدينة كلها ، فجرعت لذة النصر ولوعة الحزن فى شربة واحدة . وسجد الناس للملك الجديد أحمس فى سكون وخشوع . وتسلّم كهنة أمبوس الجثمان العظيم .

خلا أحمس إلى نفسه ، وكتب رسالة إلى توتيشيرى ، كما أوصاه أبوه . وبعث بها مع رسول .

جاءت الرسل بأخبار سارة ومؤسفة معًا عن الأسطول . فقد هزم الأسطول المصرى أسطول الرعاة وأسر بعض وحداته . ولكن القائد قمكاف سقط قتيلاً . وقد أدار الضابط أحمس أبانا المعركة بعد سقوط قمكاف . وأحرز النصر النهائى . وقتل قائد الرعاة بيده فى معركة عنيفة . فكافأه الملك أحمس . وأصدر أمره بتوليته قيادة الأسطول .

اتبع الملك أحمس سياسة أبيه الحكيمة . فولّى صديقه هام حكم أمبوس . وعهد إليه بتنظيمها ، وتجنيد القادرين من أهلها . وقال له أمام حاشيته وقواده :

ـ لقد آليت على نفسى . منذ اليوم الذى سعيت فيه إلى أرض مصر فى ثياب التجار ، أن أجعل مصر للمصريين . فليكن هذا شعارك فى حكم هذا البلد .

ثم قال للحاجب حور :

ـ فلنتقدم سريعًا بقواتنا .

٥

غادر الجيش أمبوس عند الفجر . وأبحر الأسطول . ومضت الطلائع تدخل القرى فتستقبل فيها أحرّ استقبال ، حتى شارفوا أبولبتوبوليس ، فتأهبوا لخوض معركة جديدة . ولكن الطلائع لم تلق أية مقاومة . ودخلت المدينة بسلام . وكانت وحدات الأسطول تنحدر مع مياه النيل فى ريح مواتية ، فلا تجد أثرًا لسفن العدو . فأشار حور ـ وهو الحذر بطبعه ـ على الملك أن يرسل بعض القوات الكشفية إلى الحقول الشرقية ، خشية أن يكون العدو أقام كمينًا ، فيقعوا فيه . وبات الجيش والأسطول فى أبولبتوبوليس ، وفارقاها مع الفجر . وكان الملك وحرسه يسيرون فى مقدمة الجيش ووراء قوات الاستطلاع . وسأل الملك حور :

ـ ألسنا سائرين الآن إلى هيراكونبوليس ؟.

فقال الحاجب حور :

ـ بلى يا مولاى . وهى مركز الدفاع الأمامى عن طيبة نفسها . وستنشب فى واديها أول معركة شديدة بين القوتين .. قوتنا وقوة الرعاة .

وحين الضحى ، جاءت أنباء كشفية بأن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول للرعاة ، لعلّه ـ لضخامته وكثرة وحداته ـ هو الأسطول الكامل للعدو . وذكرت الأنباء أن المعركة تدور بقوة وعنف . فاتجه الملك بنظره نحو النيل فى الغرب ، وبدا على وجهه الجميل الرجاء والأمل . وقال حور :

ـ الرعاة يا مولاى حديثو عهد بحرب الأساطيل .

فصمت الملك ولم يجب . ومضت الشمس ترتفع إلى كبد السماء ، والجيش يتقدم بفرقه ومعداته . فاستسلم أحمس للتأمل والتفكير فى أسرته ، وهى تتلقى نبأ مقتل كاموس ..

رباه .. لقد سقط كاموس غدرًا ، وخسر جيشه بسالته وخبرته ، وأورثه تركة مثقلة بالواجبات الجليلة .. ثم سرح خياله إلى الأمام .. إلى طيبة ، حيث يعانى الشعب العذاب والذل من حكم أبوفيس . وتذكر الحاكم خنزر ، الذى لن تهدأ نفسه حتى ينتقم لجدّه الشهيد منه ، ويرديه قتيلاً . ثم لاحت لخاطره الأميرة أمنريدس ، وتساءل : ألا تزال تتعلق بالتاجر الجميل أسفينيس ، وتأمل أن يفىَ لها بوعده ؟.

وهنا سعل حور ، فذكّره بأنه لا ينبغى له أن يتشوق إلى الأميرة ، وهو على رأس الجيش الزاحف لتطهير مصر من قومها . فطارد الفكر ، وألقى ببصره على جيشه العرمرم ، واتجه بتفكيره إلى المعركة الدائرة فى النيل .

عند منتصف النهار ، جاءت رسل الاستطلاع تقول :

ـ الأسطولان مشتبكان فى قتال عنيف ، والقتلى من الجانبين يسقطون بكثرة ، والقوتان متعادلتان ، ويستحيل التكهّن بنتيجة المعركة .

ظهر العبوس على وجه الملك ، ولم يُخْفِ قلقه ، فقال حور :

ـ لا داعى للقلق يا مولاى ، فأسطول الرعاة قوة لا يستهان بها . وأسطولنا يخوض الآن المعركة الفاصلة فى النيل .

فقال أحمس :

ـ وإذا خسرناها خسرنا نصف الحرب .

فقال حور بثقة :

ـ وإذا كسبناها يا مولاى ، كما أتوقع ، كسبنا الحرب كلها .

حل المساء ، والجيش على بعد بضع ساعات من هيراكونبوليس فتوقف للراحة والاستعداد . وبعد وقت قصير ، جاءت الأخبار بأن الطلائع تقاتل قوات متفرقة من جيش العدو . فأمر الملك بإرسال قوة من العجلات لتدعم قوات الاستطلاع .

كان أحمس يحس بالمسئولية الخطيرة التى يتحملها ، بقيادته الجيش لأول مرة فى حياته . وشعر بأنه حامى هذا الجيش ، والمسئول عن مصير مصر إلى الأبد . فقال لحور :

ـ ينبغى أن نوجه قوتنا لتحطيم عجلات الرعاة .

فقال حور :

ـ هذا ما سيحاوله كل من الجيشين . وإذا حطّمنا عجلات العدو ، وسيطرنا على ميدان المعركة ، أصبح جيشه تحت رحمة قسيّنا .

وفيما أحمس يتأهب لخوض غمار المعركة ، جاءه رسول من ناحية النيل ، وأخبره أن الأسطول المصرى تلقى ضربات شديدة ، فرأى أحمس أبانا أن يتقهقر بوحداته الأساسية ليعيد تنظيمها ، وأن القتال مستمر على أشدّه .

ساور القلق الملك أحمس ، وخَشِىَ من ضياع أسطوله العظيم . ولم يجد مهلة للتفكير ، إذ أُخْبِر أيضًا أن جيش العدو بدأ هجومه . فتقدم بحرسه ، وأمر فرقة العجلات بالهجوم ، فهجم الجيش فى قلب وجناحين ، اندفعوا صفوفًا متراصّة ، فى سرعة وجلبة زلزلت الأرض زلزالاً . وما لبثوا أن رأوا جيش الرعاة يتقدم منقضًّا كالريح العاصفة ، فى جموع كثيفة من العجلات . فأدركوا أن عدوهم يلقاهم بقواته الوحشية ، التى طالما سامتهم الإذلال والقهر . فثار الغضب فى نفوسهم ، وصاحوا بصوت كالرعد «حياة أمنحيت أو ميتة سيكننرع» . وألقوا بأنفسهم فى المعركة ، بقلوب تتعطش إلى القتال والانتقام . وقاتل الفريقان بقوة ووحشية وقسوة . وخضبت الأرض بالدماء . واختلط صياح الجنود بصهيل الخيل وعزف القسىّ .

استمر القتال عنيفًا قاسيًا حتى غربت الشمس ، وحلّقت فى الفضاء أشباح الظلام . فكفّ الجيشان ، ورجع كلٌّ إلى معسكره . وكان أحمس يسير وسط دائرة من حرسه ، الذين دافعوا عنه فى أثناء كرّه وفرّه . واستقبله رجاله وعلى رأسهم حور . فقال لهم :

ـ كان قتالاً عنيفًا كلّفنا أبطالاً بواسل .

ثم تساءل الملك :

ـ أما من جديد عن أسطولنا ؟.

فقال حور :

ـ قاتل فى أثناء النهار وهو يرتدّ ، ثم التحمت أكثرية السفن مع وحدات العدو بالسلالم ، فلم تستطع الانفصال حين خيّم الظلام . والقتال لا يزال مستمرًا . ونحن فى انتظار ما يجدّ من أخبار .

تجهم وجه الملك المتعب ، وقال لمن حوله :

ـ لندع الرب جميعًا ، أن ينصر إخواننا الذين يقاتلون على سطح النيل .

٦

استيقظ الجيش مع طلوع الفجر ، وجاءت رسل الاستطلاع بأخبار مهمة . قالوا : الحركة لم تسكن طوال الليل فى معسكر العدو . وقوات جديدة من الرجال والعجلات ، كانت تتدفق طوال الليل على هيراكونبوليس .

وفكّر حور مليا ، ثم قال :

ـ العدو ، يا مولاى ، يجمع قواته هنا ليلقانا بجيشه كاملا ـ ولا أعجب لذلك . لأننا إذا اقتحمنا أبواب هيراكونبوليس ، فسيكون الطريق أمامنا مفتوحًا حتى أسوار طيبة المجيدة .

جاءت أخبار سارة من جانب النيل قاتل الأسطول قتال المستميت ، حتى طرد جنود العدو من السفن التى كانوا نزلوا بها . فاضطر أسطول الرعاة أن ينفصل ويبتعد بعد أن خسر ثلث قوته . وكفّ الأسطولان عن القتال ساعات . ثم اشتبكا فى معركة جديدة بعد الفجر . وكان أسطول أحمس أبانا البادئ بالهجوم . فانشرح صدر الملك ، وتوثب للقتال بقلب يملؤه الفرح .

حين أسفر الصبح ، تقدم الجيشان للقتال . وبرزت صفوف العجلات ، وصاح المصريون صيحتهم المعروفة «حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع» . ثم ألقوا بأنفسهم فى

معترك الموت ، والتقوا بالعدو فى صدمات قاتلة ، واشتدوا عليه كما اشتدّ عليهم : وقاتلوا بالأقواس والرماح والسيوف . وفيما القتال يشتد ، لاحظ الملك أحمس أن قلب جيش العدو يدير المعركة بمهارة فائقة ، ويرسل القوات هنا وهناك بانتظام ودقة . فتفحصّ القائد البارع الذى يدير ذلك ، فإذا به أبوفيس نفسه ، الذى أهدى إليه التاج المرصّع بالجواهر فى قصر طيبة ، بجسمه البدين ولحيته الطويلة وبصره الحاد . فتحفّز أحمس لهجمات شديدة ، وقاتل قتال الأبطال البواسل ، وحرسه يردون عنه هجمات العدو . فلم يلق فارسًا من العدو إلّا صرعه فى غمضة عين ، حتى هابوا نزاله ويئسوا من التغلّب عليه . وطال أمد القتال . واندفعت إلى ميدان المعركة قوات جديدة من الجانبين . واستمر القتال على عنفه وشدته ، حتى أوشك النهار أن ينتهى . وفى تلك الساعة ، وقد أنهكت قوى الطرفين ، انقضت قوة من عجلات الرعاة بقيادة رجل شديد البأس ، على الجناح الأيسر للمصريين ، وضغطته ضغطًا شديدًا ، لم تُفِدْ معه المقاومة المنهوكة القوى . ومضت القوة المنقضّة تصنع لنفسها ثغرة ، لتندفع منها وتطوّق القوة المحاربة أو تهجم على المشاة .

أدرك أحمس أن ذلك القائد ذا البأس الشديد ، تحيّن فرصة مناسبة فى تعبهم ، وأنه ادخر قوته ليضرب ضربة قاضية . وخشى أن يظفر هذا القائد بغرضه ، فيوقع الاضطراب فى صفوف جيشه المتراصة، أو يوقع مذبحة فى مشاته . فرأى أن يقتحم قلب العدو بقوته ، فيجد القائد الداهية نفسه شبه محاصر . ولم يتردد أحمس ، لأن الموقف كان خطيرًا دقيقًا . وهجم على القلب بحركة فجائية قوية ، واشتد القتال إلى درجة مروّعة مفزعة . واضطر العدو أن يتقهقر تحت الضغط الشديد . وعندئذ ، أرسل أحمس قوة من العجلات لتطويق القوة التى تشتد على جناحه الأيسر . ولكن القائد كان داهية بارعًا . فعدّل خطته ، بعد أن كاد يحدث الثغرة المطلوبة ، ورمى بقوة صغيرة من عجلاته لتواصل الهجوم ، وتقهقر هو وبقية القوة بسرعة إلى جيشه . وفى أثناء هذه العملية الدقيقة ، استطاع أحمس أن يرى القائد الجسور . إنه خنزر حاكم الجنوب ببنيانه المتين وعضلاته الفولاذية : وقد كلّفت هجمته الجبارة ، المصريين قتلى كثيرين من زهرة فرسان العجلات . وانتهى القتال بعد ذلك بقليل . فعاد أحمس وجيشه إلى معسكرهم . وكان أحمس يقول متوعّدًا غاضبًا

«لابد أن نلتقى يا خنزر وجهًا لوجه» .

وفى المعسكر ، فوجئ الملك أحمس بوجود أحمس أبانا : فتفاءل من وجوده ، وسأله :

ـ ماذا وراءك أيها القائد ؟.

فقال أحمس أبانا :

ـ النصر يامولاى . لقد أوقعنا الهزيمة بأسطول الرعاة . وأسرنا أربع سفن كبيرة ، وفر الباقى ، ومعظمه سفن صغيرة لا قيمة لها . فتهلل وجه الملك ، ووضع يده على كتف القائد أحمس أبانا ، وقال :

ـ لقد كسبت لمصر ، بهذا النصر ، نصف الحرب . وأنا بك جدّ فخور .

٧

استيقظ الجيش مرة أخرى عند مطلع الفجر . وأخذ فى التأهب والاستعداد . واستقبل الملك رجاله فى خيمته ، وقال لهم :

ـ لقد صح عزمى على مبارزة خنزر .

ففزع حور لهذا القول . وتوسّل كل قائد إلى الملك أن يقوم هو بقتال حاكم الجنوب . ولكن أحمس شكرهم ، وقال لحور :

ـ لا يُقْبَل منى أن أضيّع فرصة بين يدىّ ، لأواجه قاتل سيكننرع . فدعنى أقاتله حتى أقتله . فأوفى دينا فى عنقى نحو روح تراقبنى . ولتنزل لعنة الرب بالمترددين الحائرين .

وأرسل الملك ضابطا ليعرض على خصمه رغبته . فذهب الضابط إلى وسط الميدان ، وصاح :

ـ أيها العدو . فرعون مصر يريد مبارزة القائد خنزر لتسوية حساب قديم .

فبرز له رجل من كتيبة خنزر ، وقال له :

ـ قل لمن تسميه فرعون . القائد خنزر لا يحرم عدوا من شرف الموت بسيفه .

فامتطى أحمس صهوة جواد كريم ، يحمل سيفه ورمحه . ونخس الجواد ، فجرى

صفحة فارغة

به إلى الميدان . ورأى عدوه ينطلق نحوه على جواده متباهيا ، وجسمه يبدو مثل كتلة الجرانيت . تقاربا رويدا رويدا ، حتى كاد رأسا جواديهما أن يتماسا . وأبصر كل منهما خصمه . فلم يتمالك خنزر من الدهشة ، وصاح بغرابة :

ـ رباه .. من أرى أمامى ؟ أليس هو أسفينيس تاجر الأقزام واللآلئ ؟ يالها من دعابة ؟ أين تجارتك أيها التاجر أسفينيس ؟ .

وكان أحمس ينظر إليه فى هدوء وسكينة ، وقال له :

ـ انتهى أسفينيس أيها القائد خنزر . وليس لى تجارة الآن سوى هذا ..

وأشار إلى سيفه ، فملك خنزر عواطفه ، وسأله :

ـ فمن تكون إذن ؟ .

فقال أحمس ببساطة وهدوء :

ـ أحمس فرعون مصر ..

فضحك خنزر ضحكة عالية دوت فى الميدان ، وقال ساخرا :

ـ ومن الذى ولاّك مصر ، وهنا ملكها يحمل التاج المزدوج الذى أهديته إليه ساجدا ؟ .

فقال أحمس :

ـ ولاّنى الذى ولىّ آبائى وأجدادى . واعلم أيها القائد أن الذى يبارزك هو حفيد سيكننرع .

فبدا الجد على وجه الحاكم ، وقال بهدوء :

ـ سيكننرع ؟ هل هو ذلك الرجل الذى قضى سوء حظه يوما أن ينازلنى ؟ اعذرنى على بطء فهمى .. ولكن هل ترغب حقا فى مبارزتى ياأسفينيس ؟ .

فقال أحمس بحدة .

ـ لا تقل لى أسفينيس . فأنا أحمس بن كاموس بن سيكننرع ، أسرة عريقة ، انحدرت من صلب طيبة المجيدة ، فلم تعرف مثلكم رعى القطعان ولا التشرد فى الصحارى . وأرغب حقا فى مبارزتك ، وإنه لشرف سوف تكتسبه .

فصاح خنزر قائلا :

ـ أرى الغرور يعميك عن معرفة قدر نفسك . وظننت أن انتصارك على القائد

رخ يسوّغ لك الوقوف أمامى . فوارحمتاه لك أيها الشاب المغرور . ماذا تختار أن يكون سلاحك ؟ .

فقال أحمس ، والابتسامة الساخرة ترتسم على فمه :

ـ السيف إذا شئت .

فقال خنزر ، وهو يهز كتفيه العريضين :

ـ هو أعز الأصدقاء .

ونزل خنزر عن ظهر جواده ، وأسلمه إلى تابعه . ثم سلّ سيفه وأمسك بترسه . وفعل أحمس مثله . ووقفا صامتين يفصل بينهما مقدار ذراعين . ثم تساءل أحمس :

ـ هل نبدأ ؟ .

فقال خنزر ضاحكاً :

ـ ما أجمل هذه المواقف التى تتصارح فيها الحياة والموت ، هلمّ يافتى ...

فتوثّب الملك ، وهاجم خصمه الضخم بشجاعة ، ووجه إليه ضربة شديدة تلقاها الحاكم على ترسه ، ثم رد عليه الهجوم وهو يقول :

ـ يالها من ضربة صادقة ياأسفينيس .. رنين سيفك على ترسى ، يذكّر بلحن الموت .. مرحى .. صدرى يرحب برسل الموت ، وما أكثر ما طمع الموت فى ، وأنا ألعب بين مخالبه .. ثم يرتدّ عنى خائبا ، بعد أن يدرك أنه جاء لغيرى .

وكان الرجل يقاتل ، دون أن يكف عن الكلام ، كأنه راقص ماهر ، يغنّى وهو يرقص . فأدرك أحمس أن خصمه عنيد شديد اليأس فولاذى العضلات ، واسع الحيلة ، خفيف الحركة ، جبّار فى الكرّ والفرّ . فبذل أحمس كل ما لديه من قوة ودراية . ولكنه تلقى ضربة بترسه أحسّ بثقلها ، ورأى خصمه يبتسم فى ثقة وطمأنينة ، فأهاج الغضب أحمس ، وأثاره الغيظ الشديد ، ووجه ضربة هائلة ، تلقاها الرجل بدوره على ترسه ، وهو هادئ الأعصاب ، وسأل أحمس :

ـ أين صُنِع هذا السيف المتين ؟ .

فقال له أحمس :

ـ فى نباتا فى أقصى الجنوب .

فقال الرجل وهو يتفادى ضربة شديدة وجهها أحمس إليه بمهارة فائقة :

ـ أما سيفى ، فقد صُنِع فى منف بأيدى صناع مصريين .
ولم يكن صانعه يعلم بأنه يصنع لى ما سوف أقضى به على مليكه ، الذى تاجر وقاتل من أجله .
فقال أحمس :
ـ ما أسعده غدا عندما يعلم أن السيف الذى صنعه كان شؤما على عدو بلاده .
كان أحمس يتحيّن الفرصة لهجوم عنيف يفاجئه به . فما كاد يتم كلامه ، حتى وجّه إلى خصمه الجبار ثلاث ضربات متتالية بسرعة خاطفة ، فتفاداها خنزر بدرعه وسيفه ، ولكنه اضطر أن يتقهقر خطوات . فقفز عليه أحمس ، وهاجمه هجوما قاسيا ، ووجه إليه الضربة تلو الضربة . وأدرك خنزر خطر المصير ، فكفّ عن مداعبة خصمه ، وأطبق فمه ، وزال عنه الابتسام وقطّب جبينه ، ودافع هجمات عدوه بقوة جبارة وبسالة هائلة ، وأبدى من ضروب المهارة والشجاعة مايفوق كل تصور . وأصاب حدّ سيفه خوذة أحمس ، وظن الرعاة أنه قضى على عدوهم العنيد أحمس ، فتعالى هتافهم . ولكن أحمس لم يحس تخاذلا ولا وهنا ، واستجمع قواه ، وضرب عدوه ضربة قوية عنيفة ، أسقطت الترس من يده ، وتعالى الهتاف من الجانبين ، بين فرح وغضب . وتوقّف أحمس عن القتال ، ونظر إلى خصمه مبتسما ابتسامة الظفر . وكان خنزر يشهر سيفه ، ويتأهب للقتال بغير ترس . فما كان من أحمس إلا أن خلع ترسه ، ورمى به جانبا . فبدت الدهشة على وجه خنزر ، ونظر إليه نظرة غريبة ، وهو يقول :
ـ ياله من نبل يليق بأخلاق الملوك .
واستأنفا القتال فى سكون . فتبادلا ضربتين شديدتين . ولكن ضربة أحمس كانت أسرع إلى رقبة خصمه الجبار ، فسرت فيه رجفة هائلة ، وتراخت يده عن مقبض سيفه ، ثم سقط على الأرض كأنه بنيان تهدّم . ودنا أحمس منه فى خطى بطيئة ، ونظر إلى وجهه بعين ملؤها الاحترام ، وقال له :
ـ يالك من جبّار باسل أيها الحاكم خنزر .
فقال الرجل ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة :
ـ بالحق نطقت أيها الملك . ولن يعترض سبيلَك من بعدى مقاتل .

وتناول أحمس سيف خنزر ، ووضعه إلى جانب جثته . ثم امتطى جواده وعاد إلى معسكره ، وهو يدرك أن الرعاة سيحاربون بعنف رغبة فى الانتقام . فأقبل على فرسانه ، وصاح بهم :

ـ أيها الجنود ، رددوا شعارنا الخالد : « حياة امنمحيت أو ميتة سيكننرع » . فلا تضيعوا صبر الأعوام وجهاد الأجيال فى تخاذل ساعة واحدة .

ثم حمل وحملوا . ودار القتال عنيفا حتى مغيب الشمس . واستمر القتال على هذا النحو عشرة أيام .

٨

فى مساء اليوم العاشر ، عاد الملك أحمس من ميدان المعركة متعبا منهوك القوى ، فاجتمع بحاشيته وقواده . وكان مصرع خنزر قد ألحق بجيش الرعاة خسارة لا تعوّض . ولكن فرقة عجلاتهم ظلت تقاوم ، وتصد هجمات المصريين ، وتوقع بهم خسائر فادحة . فساور الملك القلق . وكان فى ذلك المساء غاضبا حزينا لكثرة من سقطوا من فرسانه البواسل . الذين تصدّوا للموت بغير مبالاة . فقال ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ هيراكونبوليس .. ترى هل يقترن اسمك بانتصارنا أم بهزيمتنا ؟ .

كان المجتمعون لا يقلّون عنه حزنا وغضبا . وحاول الحاجب حور أن يقلل من وقع الخسائر ، ويؤكد :

ـ سوف نحطم غدا عجلات العدو . ولن يكون لمشاته قدرة أمامنا . وسيلوذون بأسوار الحصون فرارا من انقضاض عجلاتنا عليهم .

طلب الملك الإحصاء الأخير للخسائر . جاء ضابط به . فإذا بفرقة العجلات المصرية قد خسرت ثلثى قوتها من العجلات والفرسان . فامتقع وجه أحمس . ونظر فى وجوه رجاله . فإذا الوجوم يعلوها جميعا . فقال :

ـ لم يبق لدينا سوى ألفى فارس . فكيف تقدرون خسائر العدو ؟ .

فقال القائد ريب :

ـ لا أتصور يامولاى أنها تقل عن خسارتنا . وأرجّح أنها تزيد عليها .

فحنى الملك رأسه ، ولبث يفكر مليا ، ثم نظر إلى رجاله وقال :

ـ سيُعْلم كل شىء غدا . فغدًا يوم الفصل دون شك .

ولعل عدونا يعانى من القلق والحيرة ما نعانى وأكثر . وعلى كل حال ، لن يلومنا أحد ، ولن نلوم أحدا . والرب يعلم أننا نقاتل بقلوب مستعذبة الموت .

فقال ريب متسائلا :

ـ أسطولنا لا يحارب الآن .. فلماذا لا يُنزل جنودا وراء جيش العدو ؟ .

فقال أحمس أبانا :

ـ أسطولنا يسيطر الآن على النيل سيطرة كاملة .. ولكننا لا نستطيع أن نجازف بإنزال جنود وراء العدوّ إلا إذا كان جيشه مشتبكا جميعه فى القتال . والواقع أن القتال مقصور حتى الآن على فرقتى العجلات . أما باقى جيش العدو فرابض وراء الميدان مستريحا يقظا ..

دار نقاش حول احتياطى الفرسان . فقال الملك أحمس :

ـ جئنا مصر بستة آلاف فارس ، هم ثمرة جهاد شاق وصبر طويل . فخسرنا منهم أربعة آلاف رجل فى اثنى عشر يوما من أيام الجحيم .

حاول حور أن يبث الطمأنينة بأن قال :

ـ إن مدن سبين وأمبوس وأبولنيوبوليس تبنى العجلات ، وتدرّب الفرسان بلاتوان ..

قال أحمس أبانا بحماسه الذى لا يعرف اليأس :

ـ حسْبنا شعارنا الذى لقنتنا إياه الأم المقدسة توتيشيرى « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » . وفرساننا سوف لا يُغْلبون . ومشاتنا يتحرقون شوقا إلى القتال . والرب لم يرسلك إلى أرض مصر عبثا .

أمّن الرجال على قول القائد الشاب . وابتسم الملك ابتسامة مشرقة . وبات الجيش ليلته ، واستيقظ مع الفجر كعادته ، وتأهب للقتال .

عند تباشير الصباح ، تقدمت فرقة العجلات ، وفى قلبها الملك وحرسه . نظر إلى الميدان فرآه خاليا .. فتعجب غاية العجب . ثم أمعن النظر ، فرأى على البعد أسوار

هيراكونبوليس ، لا يعترض سبيله إليها أحد من الرعاة . ولم تطل الدهشة . وجاء رجال الاستطلاع يبلغون الملك أن جيش أبوفيس انسحب من الميدان بجموعه الجرارة ، وترك هيراكونبوليس فى الليل مسرعا نحو الشمال . فقال القائد محب :

ـ الآن حصحص الحق . فما من شك أن قوة عجلات الرعاة تحطمت . وأن أبوفيس رأى أن يفر إلى حصونه خوفا على مشاته من فرساننا .

وقال القائد ريب فرحا :

ـ لقد كسبنا موقعة هيراكونبوليس الهائلة ..

فقال الملك :

ـ بل قل إننا حطّمنا عجلات الرعاة ، وكفى .

سرت الأخبار إلى الجيش ، فشاع الفرح فى النفوس .

دخل أحمس مدينة هيراكونبوليس على رأس جيشه ، وهرع معه الأهالى الذين كانوا قد فروا إلى الحقول خوفا من انتقام الرعاة . واستقبلوا ملكهم استقبالا حارا ، وهتفوا لجيش الخلاص هتافا يشق عنان السماء ..

كان أول شيء فعله الملك أن صلى للرب آمون .. الذى أمده بالعزيمة بعد أن كاد يشرف على اليأس ..

٩

استراح الجيش فى هيراكونبوليس بضعة أيام بعد قتال عنيف دام اثنى عشر يوما . وأشرف أحمس بنفسه على تنظيم المدينة ، وأعاد إلى حكومتها ومزارعها وأسواقها ومعابدها مصريتها الأولى . وواسى الأهالى لما تعرضوا له من الاضطهاد ، وما تعرضت له مدينتهم من النهب والسلب والتخريب ، فى أثناء تقهقر الرعاة .

زحف الجيش نحو الشمال ، وأبحر معه الأسطول . ودخل مدينة نخب فى عصر اليوم نفسه دون مقاومة . وبات فيها حتى فجر اليوم التالى . ثم استأنف سيره دون أن يلتقى بأية قوات للعدو . وقصّ عليهم الأهالى كيف مرّ بهم جيش أبوفيس يحمل جرحاه ، وكيف حمل الرعاة من أصحاب الدور والمزارع ، أثاثهم وأموالهم ، وحقوا

بجيش مليكهم فى حالة شديدة من الفزع والفوضى .

ظل جيش مصر يتقدم بقواته المرهوبة ، يدخل المدن والقرى دون أدنى مقاومة . وكان خبر الهزيمة التى لحقت بفرقة عجلات الرعاة . ينعش نفوس الجند ، ويذكى فى قلوبهم الأمل والحماسة . فمضوا ينشدون الأغانى الحماسية ويضربون فى أرض الوادى ، حتى طالعتهم أسوار مدينة هابو المتوغلة فى منطقة طيبة . وكانت كسابقاتها ، من المدن ، بغير حراس ، فدخلها الجيش فى سلام .

تقدم الجيش شمالا بقلوب متحفزة متوثبة ، وهو يعلم أنه مقبل على المعركة الفاصلة التى تقرر مصيره ومصير طيبة . وانحدر فى الوادى العظيم الذى كان يسمى « طريق آمون » . وكان يتسع كلما أوغلوا فيه ، إلى أن بدا لهم السور العظيم ، سور طيبة ، تنطلق من خلفه المسلات وجدران المعابد والأبنية الشاهقة . فسرت فى النفوس عاصفة من الحماس والحنين ، وتصايحت جنبات الوادى بالهتاف « طيبة .. طيبة » . ومازالوا يهتفون ، حتى جرفتهم دموع الفرح ، فبكوا وبكى حور الشيخ .

عسكر الجيش العظيم . ووقف أحمس وسط الجيش ، يرفرف على رأسه علم طيبة ، الذى صنعته توتيشيرى بيديها ، ويرسل ناظريه إلى المدينة ويقول :

« طيبة .. طيبة .. ياأرض المجد .. ومثوى الآباء والأجداد . أبشرى ، فغدًا يطلع عليك صبح جديد .. » .

١٠

استدعى الملك القائد أحمس أبانا ، وقال له :

ـ سأعهد إليك بساحل طيبة الغربى ، تهاجمه أو تحاصره كما ترى ، تستلهم خططك من الظروف المحيطة بك .

أخذ الرجال يفكرون فى طريقة الهجوم على طيبة . هل يهاجمونها أم يحاصرونها ، ولكنهم رفضوا الحصار . فهم لا يستطيعون التفكير لحظة واحدة فى تجويع أهل طيبة . فليس أمامهم سوى مهاجمة أسوارها ، وإن كان ذلك سيكلفهم أرواحا غالية . لكنهم سيبذلونها عن طيب خاطر من أجل طيبة الغالية .

صفحة فارغة

تقدم الأسطول المصرى نحو شاطئ طيبة الغربى ، والتقى أمامه بأسطول للرعاة ، الذى جمعوه من السفن الفارة من هيراكونبوليس . واشتبك الأسطولان فى معركة عنيفة . وكان المصريون أكثر عددا فى الرجال والسفن ، فضيقوا الخناق على عدوهم . وأصلوه نارا حامية .

أرسل الملك أحمس طلائع من فرق القسىّ والرماح لاختبار القوات المدافعة . فوجدوا الرعاة قد ملأوا السور بالحراس الأشداء ، وبكميات أسلحة لا تنفد . فنظم القواد المصريون قواتهم ، وأرسلوا كتائب متتالية فى أرجاء الوادى لتهاجم السور فى نقط متباعدة . وصوبت قسيّها نحو فتحات السور المنيع ، محتمية بدروعها الطويلة . ولكن سهام العدو انهالت عليهم كالسيل ، ودار القتال بلا رحمة . وكان القواد يرسلون مجموعات متتابعة من الجنود المتحفّزين للقتال ، والذين كانوا يقاتلون بجسارة لا تهاب الموت . فدفعوا ثمن جرأتهم غاليا . وانتهى النهار بمذبحة هائلة . وقد روّع الملك بمنظر القتلى والجرحى ، فصاح غاضبا :

ـ جنودى لا يبالون الموت ، والموت يحصدهم حصدا .

فقال حور ، وبصره زائغ وهو ينظر إلى الميدان :

ـ يالها من معركة يامولاى .. الجثث تملأ الميدان .

كان القائد محب متجهّم الوجه ومعفّر الثياب ، فقال :

ـ ألسنا نهاجم الموت .

فقال أحمس :

ـ لن أدفع بجيشى إلى الهلاك المحقق ، ويحسن أن أرسل عددا محدودا من الرجال وراء القباب الواقية .

ظل الملك ثائر النفس . ولم يخفف عنه ما جاءه بأن الأسطول المصرى استولى على بقية أسطول الرعاة ، وأصبح سيد النيل دون منازع .

فى ذلك المساء ، عاد الرسول الذى كان قد بعثه إلى أسرته فى نباتا ، يحمل رسالة من توتيشيرى . فبسط أحمس الرسالة بين يديه . وقرأ فيها :

« جاءنى رسولك ينعى إلى فقيدنا الباسل كاموس ، ويبلغنى كلمته الأخيرة إلىّ ...

« لقد كُتب على قلبى أن يذوق الموت مرتين ، ولكن لا يصعب العزاء على من يعيش فى وقود معركة هائلة ، تُبذل فيها النفوس رخيصة ، ويتسابق الشجعان إلى الموت ..

« ولا أكتمك ـ رغم ألمى وحزنى ـ أن رسولا يأتينى بنبأ موت كاموس مع نصر جيشنا ، أحبّ إلىّ من أن يجيئنى كاموس نفسه حيا وجيشنا منهزم .

« فسر فى سبيلك ترعاك عناية الرب الرحيم ، ويحفظك دعاء قلبى والقلوب المجتمعة حولى .. يتنازعها الحزن والصبر والرجاء » .

قرأ أحمس الرسالة ، واستشف ما فى سطورها من ألم ممض ورجاء حار . وتمثلت له وجوه أسرته فى نباتا . وتمتم قائلا :

« رباه ! توتيشيرى تتلق طعنات الألم القاتل بالعزاء والأمل . ولا ينسيها حزنها أملنا المنشود . فلأذكر دائما حكمتها ، وأتبعها بعقلى وقلبى .

١١

بعد أسر أسطول الرعاة ، ضرب الأسطول المصرى الحصار حول شاطئ طيبة الغربى . وبث الرعب فى أصحاب القصور المطلة على النيل . وتبادل إطلاق السهام مع حصون الشاطئ . وكان أحمس أبانا تشتاق نفسه إلى شاطئ المدينة الجنوبى ، حيث يقيم الصيادون . ولكن الرعاة كانوا أكثر حذرا مما ظن ، فأخلوا الشاطئ من المصريين ، ونشروا فوقه حراسا مدرعين .

أما الملك أحمس ، فقد عدل عن الهجوم بجماعات كثيفة ، ودفع إلى الميدان بنخبة من رجاله المدربين يحتمون بالدروع الطويلة . ودخلوا فى سباق مع المدافعين عن السور العظيم ، فى حرب تقوم على الفن ودقة التصويب . واستمرت الحرب بضعة أيام ، دون أن تبشر بأية نتيجة . فتململ الملك ، وقال :

ـ ينبغى ألا نعطى العدو مهلة يستعيد فيها تنظيمه ، ويعيد بناء قوة عجلات جديدة .

ثم شدّ على مقبض سيفه ، وقال :

ـ سآمر باستئناف الهجوم العنيف ولنقدم أنفسنا للقتال كما ينبغى لرجال أقسموا أن يحرروا بلادهم . وسأرسل إلى حكام الجنوب لصنع دروع الحصار والقباب الواقية .

وأصدر الملك أمره بالهجوم . وأشرف بنفسه على توزيع فرق القسىّ والرماح فى الميدان الفسيح على هيئة قلب وجناحين . وجعل القائد محب على الميمنة ، والقائد ريب على الميسرة . ومضى المصريون يتقدمون فى موجات كبيرة تقاتل العدو المحتمى بالسور الرهيب . واستطاع المصريون أن يلحقوا بعدوهم خسائر فادحة ، كما خسروا عددا كبيرا من رجالهم . ولكن خسارتهم كانت أقل من خسارة اليوم الأول . ودار القتال على هذا بضعة أيام أخرى . وكثر عدد القتلى من الجانبين . واشتد ضغط الجناح الأيمن للمصريين على العدو ، حتى استطاع أن يسكت نقطة من نقط دفاعه المتعددة ، ويقضى على كل من يتصدى لإطلاق السهام من فتحاتها . وانتهز بعض الضباط البواسل هذه الفرصة ، فهاجموا تلك الجهة بجنودهم ، وأقاموا سلما وصعدوا عليه مع قوة باسلة ، تحميهم سهام إخوانهم يطلقونها لتغطيهم كالسحاب . وقد انتبه الرعاة إلى الناحية المهددة ، فتكاثروا عليها ، وأصلوا المهاجمين نارا حامية حتى أبادوهم . ومع ذلك سر الملك لهذا الهجوم الشجاع الجرىء ، وقال لمن حوله :

ـ لأول مرة من بدء الحصار ، يصعد نفر من جنودى إلى سور طيبة ، وإن قُتلوا . إنهم يضربون المثل الرائع لجيشى .

والحق ، كان لهذه الخطوة مغزى عظيم . فقد تكررت فى اليوم الثانى . ثم وقعت فى اليوم الثالث فى نقطتين من السور . ومضى ضغط المصريين على العدو يتزايد ، حتى بات الغزو أملا قريب المنال .

وفى تلك الأثناء ، جاء رسول ، من شاو حاكم سبين ، على رأس قوة من الجنود المدججين بالسلاح والذين تم تدريبهم ، ومعهم سفينة محملة بدروع الحصار ، وسلالمه ، وعدد من القباب الواقية . فاستقبلهم الملك بسرور ، وتضاعف أمله فى النصر ، وانضموا إلى المهاجمين الذين إزدادوا بهم قوة وأملا .

ومع الغد ، دار القتال مروعا هائلا ، وتوالت هجمات المصريين الصادقة ، ولاقوا الموت بقلوب لاتخشاه . وأنزلوا بعدوهم خسائر فادحة ، حتى بدا عليه الإعياء واليأس . وقال القائد محب ، وهو عائد من الميدان ، لمولاه :

ـ مولاى .. سنقتحم السور غدا .

وبات الملك ليلته شديد الإيمان كبير الأمل .

١٢

طلع فجر اليوم الموعود ، فاستيقظ المصريون فرحين مستبشرين . وتقدمت جموعهم إلى أماكنها وراء الدروع والقباب . ونظروا إلى خلف السور ، فتولتهم الدهشة ، وثار فيهم الغضب والانزعاج . لقد رأوا على السور منظرا لم يتوقعوه . رأوا أجسادا عارية ، أجساد نساء مصريات وأطفالهن الصغار . جاء بهم الرعاة ، وقيدوهم ، وهم أحياء ، إلى السور ليحتموا بهم من نبال المصريين وقذائفهم . ووقفوا خلفهم ضاحكين شامتين . وكان منظر النساء العاريات والأطفال الصغار ، وأيديهم وأرجلهم مقيّدة إلى السور ، منظرا يفتت الأكباد . فسرى الانزعاج حتى بلغ الملك فى خيمته . فنزل عليه كالصاعقة ، وصاح غاضبا :

ـ ياللوحشية ياللهمجية . الجبناء يحتمون بأجساد النساء والأطفال .

ساد الوجوم حاشية الملك وقواده ، ولم ينبس أحد منهم بكلمة . ووضح نور الصباح ، فرأوا على البعد سور طيبة تحميه أجساد النساء والأطفال . فاقشعرت أبدانهم ، واصفرّت وجوههم ، واتجهت أرواحهم تطوف بالأسرى المعذّبين فوق السور ، وأهليهم الواقفين فى الميدان أمامهم ، يعانون ويتألمون ، وهم عاجزون عن أن يعملوا لهم شيئا . فصاح حور بصوت متهدّج :

ـ ياللبائسات . إنهن ، إذا لم تمزق قلوبهن السهام ، فسيقتلهن توالى الليل والنهار ، إذا بقين على الوضع الذى هن فيه .

أخذت الملك الحيرة . ماذا يمكن أن يفعل ؟ إن كفاح أشهر طوال يكاد يضيع ، وآمال عشرة أعوام توشك أن تذهب سدا .

ماذا عسى أن يصنع ؟ هل جاء لخلاص شعبه ، أم للتنكيل به ؟

جعل يتمتم وهو حزين « آمون .. آمون .. ربى المعبود . هذا الكفاح لوجهك وللمؤمنين بك .. فألهمنى الصواب لأجد مخرجا » وتنبه من دعائه على صلصلة عجلة

قادمة من ناحية النيل . وإذا براكبها قائد الأسطول أحمس أبانا . الذى ترجّل ، وأدى للملك التحية ، ثم تساءل قائلا :

ـ مولاى .. لماذا لا يهجم جيشنا على الرعاة المنهارين . كان ينبغى أن يكون جنودنا على سور طيبة الآن .

فقال الملك بصوت حزين ثقيل النبرات ، وهو يشير إلى ناحية السور :

ـ انظر لترى بنفسك .

ولكن أحمس أبانا لم ينظر ، كما كانوا يتوقعون . وقال بهدوء :

ـ آذتنى عيونى ، برؤية هذا العمل الوحشى الدنىء . ولكن كيف نرضى أن نساق إلى الشرك الذى نصبه لنا أبوفيس ؟ هل يجوز أن نكف عن الكفاح فى سبيل طيبة ومصر ، اشفاقا من أن تؤذى نبالنا بعض نسائنا وأطفالنا ؟ .

فقال الملك أحمس بمرارة :

ـ هل ترى أن آمر بتمزيق أجساد هؤلاء النسوة البائسات وأطفالهن ؟ .

فقال القائد بحماس وثقة :

ـ نعم يامولاى . إنهن قربان الكفاح ، مثلهن مثل جنودنا البواسل الذين يتساقطون فى كل حين .. بل مثل مليكنا الشهيد سيكننرع ، وفقيدنا الباسل كاموس . مولاى ، قلبى يحدثنى بأن أمّى أبانا بين هؤلاء الأسيرات البائسات . فإذا صدق شعورى ، فإنى واثق أنها تدعو الرب الآن ، أن يجعل حبّك لطيبة فوق رحمتك بها وبأخواتها البائسات . ولست وحدى بين جنودنا . فلابد أن الكثيرين مجروحين مثلى . فليضع كل منا حول قلبه درعا من الإيمان والعزيمة .. ولنهجم .

ونظر الملك إلى قائد أسطوله طويلا ، ثم قلّب وجهه فى حاشيته وقواده . فقال الحاجب حور بهدوء ، وكان وجهه ممتقعا متهجما :

ـ صدق أحمس أبانا العظيم .

تنفس الرجال من الأعماق . وصاحوا جميعا فى نفس واحد :

ـ نعم .. نعم .. صدق قائد الأسطول .. فلنهجم .

فالتفت الملك إلى القواد ، وقال لهم :

ـ أيها القواد ، اذهبوا إلى جنودكم ، وقولوا لهم إن مليكهم الذى فقد فى سبيل

صفحة فارغة

مصر جده وأباه ، والذى لن يتردد عن الجود بنفسه فى سبيلها ، يأمرهم بالهجوم على سور طيبة المدرّع بأكبادنا ، والاستيلاء عليه مهما كلفنا ذلك من فداء .

ذهب القواد سراعا . ونُفِخ فى الأبواق . فتقدم الجنود فى صفوف ، شاكى السلاح ، مكفهرى الوجوه . وصاح الضباط بأصوات مدوية : « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » وبدأت فى الحال أبشع معركة خاضها الإنسان . وأطلق الرعاة السهام ، فرد المصريون عليهم بنبالهم ، التى انطلقت تشق صدور نسائهم وتمزّق قلوب أطفالهم ، وتسيل الدماء غزيرة . ولوّحت النسوة برءوسهن للجنود ، وصِحْن بأصوات رفيعة مبحوحة :

ـ اضربونا ولا تترددوا ، ينصركم الرب .. وانتقموا لنا .

فجن جنون المصريين ، وهجموا هجمة وحوش كاسرة . واندفعوا لا يبالون الموت ، وانقلبوا آلات جهنمية .. وحمى وطيس القتال ، واشتد الطغيان ، وسالت الدماء كالينابيع تنفجر فى الصدور والأعناق . وأحس كل مهاجم أن فى قلبه غمزا جنونيا لا يسكن ، حتى يدفن رمحه فى قلب واحد من الرعاة . وقبل أن ينتصف النهار ، تمكن الجناح الأيمن من أن يسكت عدة مواقع دفاعية . فبادر الرجال البواسل إلى إقامة سلالم الحصار ، وصعدوا عليها بقلوب لا تخشى الموت . فنقلوا القتال من الميدان إلى أعلى السور الحصين . وقفز بعضهم إلى سطح السور الداخلى ، واشتبكوا مع العدو بالرماح والسيوف ، وتوالت الهجمات بعنف وبسالة .

كان الملك يرقب القتال بدقة ويقظة ، ويرسل النجدات إلى المواقع التى يشتد عليها العدو . وقد شاهد جنوده يصعدون إلى السور فى مكان الوسط ومكانين فى الميسرة ، وقد أخذت الشمس تتوسط كبد السماء ، فقال :

ـ جنودى يبذلون جهود الجبابرة . ولكنى أخشى أن يلحقنا الظلام ، قبل أن نستولى على السور كله . فنبدأ من جديد فى الغد . فأصدر أوامره إلى فيالق جديدة بالهجوم. واشتد ضغط رجاله. وصنعوا لأنفسهم طرقا جديدة للوصول إلى أعلى السور.

أخذ اليأس يستولى على الرعاة ، بعد أن أنزل المصريون بهم خسائر فادحة ، وبعد أن رأوا سيلهم لا ينقطع وهم يصعدون الأسوار . فانهارت مواقع دفاعية بسرعة غير متوقعة .

واحتل جنود أحمس نقطا كاملة من السور . وبدا سقوط السور كله أمرا مؤكدا لا يحتاج إلا إلى وقت . وكان أحمس لا يكف عن إرسال الإمدادات القوية . وفيما هو منكب على ذلك ، دخل عليه ضابط من قوة الاستطلاع المتوغلة فى الحقول المحيطة بطيبة . وكان البشر يطفر من وجهه ، وقال للملك :

ـ أخبار جليلة يامولاى . أبوفيس وجيشه يغادرون أبواب طيبة الشمالية كالهاربين .

تعجب الملك ، وسأله :

ـ أواثق أنت مما تقول ؟ .

فقال الضابط بثقة وإيمان .

ـ رأيت بعينى ركب ملك الرعاة وحرسه ، يتبعهم جموع الجيش المدججة بالسلاح .

فقال أحمس أبانا :

ـ أدرك أبوفيس عبث الدفاع عن طيبة أمام هجمات جنودنا ، ففرّ هاربا .

فقال حور :

ـ وأدرك أيضا ـ من غير شك ـ أن الاحتماء بالنساء والأطفال كان شرا وبيلا عليه .

وما كاد حور يتم كلامه ، حتى وصل رسول جديد من الأسطول ، فحيا الملك وقال :

ـ مولاى ، شبت نيران الثورة فى طيبة . وشاهدنا من الأسطول قتالا عنيفا يقع بين الفلاحين والنوبيين من ناحية ، وأصحاب القصور وحرس الشاطئ من الناحية الأخرى .

فبدا القلق على القائد أحمس أبانا ، وسأل الضابط :

ـ وهل قام الأسطول بواجبه ؟ .

ـ نعم ياسيدى . أطلقت سفننا السهام بكثرة على الحراس ، حتى تشغلهم عن قتال الثائرين .

ظهر الارتياح على وجه القائد . واستأذن الملك فى العودة إلى أسطوله ليهجم على

الشاطئ . فأذن له الملك . وقال الملك لحور مغتبطا :

ــ لن يفلت أصحاب القصور والضياع هذه المرة بأموالهم .

فقال حور بصوت متهدج من الفرح :

ــ نعم يامولاى . وعما قريب تفتح لك طيبة المجيدة أبوابها .

ــ ولكن أبوفيس فرّ بجيشه .

ــ لن نكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس ، ويجلو عن مصر آخر رجل من الرعاة .

عاد الملك إلى مراقبة القتال . فرأى جنوده تقاتل على سلالم الحصار وفى أعلى السور ، وتضغط على الرعاة المتقهقرين أمامهم . وصعدت فيالق من حملة الرماح والسيوف بكثرة ، واعتلت السور من كل جانب . وأحاطت بالرعاة ، وأعملت فيهم القتل والذبح . وما لبث الملك أن رأى جنوده تمزّق علم الهكسوس ، وترفع علم طيبة الخفاق . ثم شاهد أبواب طيبة العظيمة ، تفتح على مصراعيها ، وجنوده تندفع إلى داخلها ، هاتفة باسمه . فحنى رأسه يجفف دمعة منتزعة من ضلوعه . وكان حور إلى يمينه يصلى ، ويجفف عينيه .

١٣

أخذت الشمس تميل نحو المغيب . وأقبل الملك والقائدان محب وريب ، ثم تبعهما أحمس أبانا . وقال لهم الملك :

ــ قبل أن نهنئ بعضنا بعضا ، ينبغى أن نؤدى الواجب نحو جثث الأبطال والجنود والنساء والأطفال الذين استشهدوا فى سبيل طيبة .

وكانت الجثث ملقاة فى جنبات الميدان ، وعلى سطح السور ، وخلف الأبواب ، وقد عفّرتها الأتربة ، وخضّبتها الدماء ، وشملها سكون الموت الرهيب . فرفعها الجنود باحترام ، وساروا بها إلى جانب من المعسكر ، وأرقدوها جنبا إلى جنب . وأتوا بالنساء والأطفال الذين مزّقتهم سهام جنودهم ، ووضعوهم فى مكان خاص .

وتوجّه الملك إلى مرقد الشهداء ، يتبعه الحاجب حور والقواد الثلاثة والحاشية . ولما دنا من الجثث المتراصة ، انحنى فى إجلال صامت حزين . وفعل رجاله مثله . ثم

سار فى خطى بطيئة ، كأنما يستعرض هذه الجثث فى حفل رسمى مشهود . ثم اتجه إلى حيث يرقد النسوة والأطفال ، وقد غطيت أجسادهم العارية بأغطية من الكتان . اكتسى وجه الملك بسحابة حزن ، وأظلمت عيناه . وتنبه من حزنه ، على صوت القائد أحمس أبانا ، وهو يصيح بالرغم عنه ، قائلا :

ـ أمى ..

فالتفت الملك وراءه ، فرأى قائده يجثو متألما متفجعا أمام إحدى الجثث . إنها أمه السيدة أبانا . فوقف الملك إلى جانب قائده الجاثى ، خاشعا حزين الفؤاد . وكان يكنّ للسيدة أبانا احتراما عظيما ، ويعرف لها وطنيتها وشجاعتها وفضلها فى تربية أحمس ، خير قواده بلا نزاع . ورفع الملك رأسه إلى السماء ، وقال بصوت متهدّج .

ـ ربنا المعبود آمون .. هذه ودائعك تردّ إليك . وكانوا فى عالمنا يعيشون لغيرهم . وكذلك ماتوا .

والتفت الملك إلى الحاجب حور ، وقال :

ـ أريد إيداع هذه الجثث جميعا مقابر طيبة . فأحق الناس بأرض طيبة ، من استشهدوا فى سبيلها .

وفى تلك الأثناء ، عاد الرسول الذى كان الملك قد أرسله إلى أسرته ، يدعوها للقدوم إلى مصر من منفاها فى النوبة . وكان يحمل رسالة من توتيشيرى . قرأها أحمس ، ثم طواها ، وهو يقول بتبرّم :

ـ الأم توتيشيرى تقول إنها لن تدخل مصر ، حتى نطهّر أرضها من عدوها ، ونجلى عنها آخر رجل من الرعاة .

فقال حور :

ـ أمنا المقدسة ، تريد ألا نكف عن القتال ، حتى نحرر مصر .

فهز الملك رأسه بالموافقة . فتساءل حور :

ـ ألا يدخل مولاى طيبة هذا المساء ؟ .

فقال أحمس :

ـ كلا ياحور .. سيدخلها جيشى وحده .. أما أنا فسأدخلها مع أسرتى بعد طرد الرعاة . ندخلها جميعا ، كما فارقناها جميعا .. منذ عشرة أعوام .

١٤

رجع الملك إلى الخيمة الفرعونية . فجاءه أحد ضباط الجيش ، وقال له :

ـ أرسلنى قادة ثورة طيبة ، يطلبون الإذن ليمثلوا بين يديك ، ليقدموا لذاتك العالية ، هدايا مما غنموا فى ثورتهم .

فابتسم أحمس ، وسأل الضابط :

ـ أقادم أنت من طيبة ؟ .

ـ نعم ياмولاى .

ـ هل فتحت أبواب معبد آمون ؟ .

ـ فتحها الثوار يامولاى .

ـ ولماذا لم يأت الكاهن الأكبر لتحيتنا ؟ .

ـ يقولون ، يامولاى ، إنه أقسم ألا يغادر خلوته ، وفى مصر رجل من الرعاة .. إلاّ أن يكون عبدا أو أسيرا .

فابتسم الملك ، وقال :

ـ حسنا أحْضِر قومى .. أهل طيبة .

فغادر الضابط الخيمة ، ومضى إلى المدينة ، وعاد يتبعه قوم كثيرون ، يسيرون جماعات جماعات . وتسوق كل جماعة هديتها .

واستأذن للجماعة الأولى . فدخل نفر من المصريين يدفعون بين أيديهم رجالا من الرعاة ، عارية رءوسهم ، متلبدة لحاهم ، ومتعفرة جباههم . وسجدوا لمليكهم . وحيا كبيرهم الملك بكلمة ، ورد عليه الملك شاكرا مبتسما ، فقال الرجل للملك :

ـ هؤلاء ، يامولاى ، نفر من الرعاة الذين ملكوا الضياع بغير حق ، كأنما ورثوها عن آبائهم ، واستذلوا المصريين وساموهم القهر ، وأسندوا إليهم أشق الأعمال بأزهد الأجور . هؤلاء طغاة الأمس ، وأسرى اليوم .. سقناهم إلى ذاتك العلية ، عبيدا من أذل عبيدك .

فابتسم الملك ، وشكرهم ، وهنأهم على استرداد سيادتهم وحريتهم . فسجدوا لمليكهم مرة أخرى . وغادروا الخيمة . وساق الجنود الرعاة إلى معتقل الأسرى .

ثم دخلت الجماعة الثانية ، يسير بين أيديها رجل ضخم الهيكل ، ناصع البياض ، ممزق الثياب ، تركت السياط آثارا واضحة على ظهره وذراعيه ، فسقط إعياء عند قدمى الملك . وبعد أن سجدوا لمليكهم ، قال رجل منهم :

ـ مولانا فرعون مصر ابن الرب آمون . هذا الشرير الذليل الآن ، كان كبير شرطة طيبة . وكان يلهب ظهورنا بسوطه لأتفه الأسباب . فمكننا الرب منه ، فألهبنا ظهره بسياطنا ، حتى مزقت جلده ، وأتينا به إلى معسكر الملك لينضمّ إلى عبيده .

فأمر الملك ، وأخذه الجند ، وهنأ قومه ، وشكرهم .

وأذن الملك للجماعة الثالثة . فأقبلت عليه تسوق رجلا ، ما أن وقع بصر الملك عليه حتى عرفه . فهو سنموت قاضى طيبة وشقيق خنزر . فألقى عليه الملك نظرة هادئة ، ونظر سنموت إليه نظرة ذاهلة من عينين تكادان لا تصدقان . وحيا الرجال الملك ، وقال كبيرهم :

ـ إليك يافرعون ، نسوق من كان بالأمس قاضى طيبة . كان يقسم للعدالة ويحكم بالظلم . فجئنا به ليذوق ما كان يسقى به الأبرياء .

فقال أحمس ، موجها خطابه للقاضى :

ـ كنت تحكم على المصريين ياسنموت . واليوم يحكم عليك المصريون .

وأخذه الجنود ، وشكر الملك رجاله المخلصين .

وجاءت الجماعة الأخيرة . وكانت شديدة الحماسة ، وتغلى بالغضب ، وتحيط بشخص لفته فى قطعة من الكتان ، تغطّيه من قمة رأسه إلى أسفل قدميه . وحيوا الملك هاتفين ، وقال قائلهم :

ـ يافرعون مصر ، وحامى المصريين ، والمنتقم لهم . نحن بعض من الذين أخذ الرعاة نساءهم وأطفالهم ، واحتموا بهم فى موقعة طيبة . فأراد الرب أن ينتقم لنا من أبوفيس . وهجمنا على حريمه فى أثناء انسحابه . وخطفنا من هى أعزّ عليه من نفسه ، وجئنا بها إليك لتنتقم منها لنسائنا .

وأزاح الرجل ستار الكتان ، فبدت امرأة عارية إلا من غلالة على وسطها ، بيضاء صافية كالنور ، يهفو شعرها حول هامتيها . كأسلاك الذهب ، ويلوح فى وجهها الفاتن الضيق الغضب والكبرياء .

بهت أحمس ، ونظر إليها ، ونظرت إليه . وبدا الانزعاج على وجهه ، وبدت على وجهها الدهشة . وتمتم بصوت غير مسموع وهو فى ذهول : « الأميرة أمنريدس .. ! » .

وخلع حور عباءته ، ودنا منها ، وألقاها عليها ، وصاح أحمس :

ـ لماذا تمثّلون بهذه المرأة ؟ .

فقال زعيم القوم :

ـ إنها ابنة كبير السفاكين أبوفيس .

وأدرك أحمس حرج موقفه بين قومه الغاضبين المتعطشين للانتقام ، فقال :

ـ لا تمكّنوا الغضب من أنفسكم ، ليفسد عليكم آدابكم المقدسة . وأنتم قوم يحترمون النساء ، ولا يقتلون الأسرى .

ـ فقال رجل موتور :

ـ ياحامى المصريين ، سيشفى صدورنا ، أن نرسل رأس هذه المرأة إلى أبوفيس .

فقال أحمس :

ـ هل تحثّون مليككم على أن يكون كأبوفيس فى سفك الدماء وقتل النساء ؟ اتركوا الأمر لى ، وانصرفوا بسلام .

فسجد القوم له وانصرفوا .

ونادى أحد ضباط حرسه ، وأمره بصوت خافت ، أن يمضى بالأميرة إلى سفينته الفرعونية ، وأن يحيطها بالعناية .

وكابد الملك ثورة فى القلب والنفس ، فلم يحتمل القعود .

وأصدر أمره إلى قواده بدخول طيبة على رأس الجيش .. دخول الظفر والنصر . ولما تحوّل إلى حور ، وجده يرمقه بعينين قلقتين .. حائرتين .. مشفقتين .

صفحة فارغة

١٥

خلا الميدان ، فاتجه الملك نحو النيل يتبعه حرسه . وكان يحث سائق عجلته على السرعة ، وكان غارقا فى الأحلام والأفكار . أية صدمة تعرض لها قلبه اليوم ، أية مفاجأة كابدها وعاناها ؟ لم يكن يدور بخلده أنه سيلتقى بأمنريدس مرة أخرى . ولكنه رآها اليوم على غير انتظار أو حسبان . ألقت بها المقادير ، وغدت بغتة فى ملكه الخاص . لشد ما اضطرب صدره ، وخفق قلبه ، وتيقظت فى نفسه عواطف حارة ، أحيت من جديد ذكرياته القديمة الحلوة .

ولكن هى .. هل عرفته ياترى ؟ وإذا لم تكن عرفته .. فهل ما تزال تذكر التاجر أسفينيس .. الذى أنقذت حياته من الموت المحقق ؟ .. ومن قالت له والقلب خافق والدموع تذرف « إلى اللقاء » ؟ ومن اشتاقت إليه فى منفاه ، فبعثت إليه برسالة كمن الحب فى سطورها ؟ أما يزال قلبها يخفق خفقته الأولى فى مقصورة السفينة الفرعونية ؟ رباه .. ما له يحس أنه مقبل على سعادة لا حدّ لها ؟ هل قلبه يُصدِقه أم يخدعه ؟ .

أحس قلقا لم يساوره فى أحرج المواقف . وكان ركبه قد بلغ الشاطئ ، فهبط إلى السفينة الفرعونية ، وسأل الضابط الذى عهد إليه بها :

ـ كيف حال الأميرة ؟ .

ـ وُضِعت يامولاى فى مخدع خاص ، وجىء لها بثياب جديدة ، وَقدم لها الطعام ، ولكنها رفضت أن تمسّه ، وعاملت الجنود بكبرياء ودعتهم بالعبيد . ولكنها عوملت أحسن معاملة كأمرك يامولاى .

بدا على الملك عدم الارتياح . وسار بخطوات هادئة إلى المخدع . ففتح الباب له أحد الحراس ، وأغلقه بعد دخول الملك . كانت الأميرة تجلس إلى يمين المدخل ، على أريكة وثيرة ، فى ثوب بسيط من الكتان ، وقد مشّطت شعرها الذى بعثره الثاثرون وأرسلته ضفيرة كبيرة . فنظر إليها مبتسما . فرآها تنظر إليه فى دهشة وغرابة ، وهى لا تصدّق عينيها . فحياها قائلا :

ـ طاب مساؤك أيتها الأميرة .

فلم تجبه . ولكنها ازدادت بسماع صوته حيرة وشكا . وكان يطيل النظر إليها فى شغف وافتنان . فسألها :

ـ هل يعوزك شىء ؟ .

فتفرست فى وجهه ، وصعّدت بصرها إلى خوذته ، وخفضته إلى درعه ، وسألته :

ـ من أنت ؟ .

ـ أُدْعى .. أحمس فرعون مصر .

فظهر عدم التصديق فى عينيها . وأراد أن يزيدها حيرة ، فخلع خوذته ، فرآها تنظر إلى شعره بغرابة ، فقال لها :

ـ مالك تنظرين إلىّ هكذا ، كأنك تعرفين شبيها لى ؟ .

فلم تدر ما تقول . واشتاق إلى سماع صوتها وحنانها ، فقال لها :

ـ هل إذا قلت لك إنى أسفينيس .. تردين علىّ ؟ .

وما كادت تسمع اسم أسفينيس ، حتى قامت واقفة ، وصاحت به :

ـ إذن أنت أسفينيس ! .

فدنا خطوة منها ، وحدّق فيها بنظرة حنان ، وأمسك بمعصمها ، وهو يقول :

ـ نعم أنا أسفينيس ياأميرة أمنريدس .

فجذبت معصمها بشدة ، وقالت :

ـ أنا لا أفهم شيئا .

فابتسم أحمس ، وقال برقة :

ـ ماذا تهم الأسماء ؟ كنت بالأمس أدعى أسفينيس ، واليوم أدعى أحمس .. ولكنى شخص واحد وقلب واحد .

ـ ياللغرابة .. كيف تقول أنت شخص واحد ؟ كنت تاجرا تبيع الحلى والأقزام .. وأنت اليوم تقاتل ، وترتدى ثياب الملوك .

ـ ولِمَ لا ؟ كنت بالأمس أجوب طيبة متخفيا . واليوم أقود قومى لتحرير بلدى ، وأستردّ عرشى المسلوب .

نظرت إليه نظرة طويلة ، تحيّر فى معناها . وحاول أن يدنو منها مرة أخرى ،

ولكنها صدّته بإشارة من يدها ، وتجمّد وجهها ، وبدت القساوة والكبرياء فى عينيها . فأحس خيبة أمل . وسمعها تقول بشدة :

ـ ابتعد عنى .

فقال لها برجاء .

ـ ألا تذكرين .. ؟ .

ولكنها قاطعته قائلة فى غضب اشتهر به قومها :

ـ سأتذكر دائما أنك جاسوس وضيع .

فأحس بصدمة مروعة ، وقال بغضب :

ـ أيتها الأميرة .. ألا تدركين أنك تخاطبين ملكا ؟ .

ـ أى ملك .. ياهذا ؟ .

فاستولى عليه الغضب ، وقال بشدّة :

ـ فرعون مصر .

فقالت بتهكم :

ـ وأبى ، هل يكون أحد ولاتك ؟ .

فاشتد الغضب به ، وغلبت كبرياؤه كل عواطفه ، وقال :

ـ أبوك ليس أهلا لأن يكون واليا من ولاتى . ولكنه مغتصب لعرش بلادى . وقد هزمته شر هزيمة ، وجعلته يفرّ من أبواب طيبة الشمالية ، تاركا ابنته أسيرة بين أيدى الذين ظلمهم . وسوف أتبعه بجيوشى حتى يلجأ إلى الصحارى التى قذفته إلى وادينا .. أما أنا فالملك الشرعى لهذا الوادى ، لأنى من سلالة فراعنة طيبة المجيدة ، ولأنى قائد مظفّر أسترد بلادى قوة واقتدارا .

وامتد الجدل حاداً بينهما . ووجدها ذات كبرياء وقسوة لا تلين ، تتمثل فيها صفات قومها الفظة المتعالية . فاشتد به الغضب ، وأحس برغبة حارة فى إخضاعها وإذلالها ، بعد أن أذلت عواطفه ، بكبريائها وصلفها ، فقال بصوت هادئ ، متعال :

ـ لا أرى سببا يدعونى إلى الاستمرار فى الجدال معك . ولا يجوز أن أنسى أنى ملك ، وأنك أسيرة .

ـ أسيرة كما تشاء ، ولكنى لن أُذلّ أبدا .

فهز كتفيه العريضين استهانة ، وأخذ خوذته من مكانها ، ووضعها على رأسه . وقبل أن يخطو خطوة أخرى سمعها تقول :

ـ لقد قلت بحق إنى أسيرة . فليست سفينتك إذن المكان الذى يصلح للأسرى . فألحقنى بالأسرى من قومى .

فنظر إليها مغيظا ، وقال يخيفها :

ـ ليس الأمر كما تتصورين . فالعادة أن الأسرى الرجال يسخّرون عبيدا ، أما النساء فيلحقن بحريم الملك المنتصر.

ـ ولكنى أميرة .

ـ كنت أميرة .. والآن ، لست سوى أسيرة .

ـ كلما تذكرت أنى أنقذت حياتك يوما .. يجن جنونى .

فقال بهدوء :

ـ وبفضل ذلك ، أنقذت حياتك من أيدى الثائرين ، الذين أرادوا أن يرسلوا رأسك إلى أبوفيس .

وأدار لها ظهره ، وغادر الغرفة غاضبا حانقا ، وأمر بالإبحار إلى شمال طيبة . فانحدرت السفينة مع تيار النيل المتدفق منذ الأزل ، تشق الظلماء إلى شمال طيبة . وكان النور يشع من سفن الأسطور الراسية على شاطئ المدينة . أما القصور الشاهقة ، فكانت غارقة فى الظلمة ، بعد أن هجرها أصحابها الفارّون . ولاحت على البعد أضواء المشاعل يحملها الساهرون الفرحون ، تتصاعد أصواتهم بالهتاف والأناشيد . فجرت ابتسامة على فمه العريض ، وأدرك أن طيبة تستقبل جيش الخلاص ، كما تعودت أن تستقبل جيوشها المظفرة ، وأعيادها الخالدة .

ومضت السفينة تدنو من القصر الفرعونى . ورآه الملك مضاء ، يشع النور من نوافذه وحديقته . وعلم أن حور يشرف على إعداده وتطهيره ، وأنه عاد إلى أداء وظيفته الأولى فى قصر سيكننرع . وشاهد أحمس ميناء حديقة القصر ، فعاودته الذكرى الأليمة ، ليلة أن حملت السفينة الفرعونية أسرته إلى أقاصى الجنوب .

وعاود الملك السير جيئة وذهابا على مقدمة السفينة ، واتجه بصره مرات إلى مخدع الأميرة المغلق . ثم تساءل متبرما ساخطا . لماذا جاءونى بها ؟ لماذا جاءونى بها .. ؟ .

١٦

فى صباح اليوم التالى ، بكر حور والقواد والمستشارون إلى زيارة الملك فى سفينته . وقال حور بصوته الهادئ :

ـ أسعد الرب صباحك أيها الملك المظفر . تركنا وراء أبواب طيبة ، أهلها تخفق قلوبهم بالفرح ، ويهزهم الشوق إلى اجتلاء وجه محررهم ومخلّصهم .

فقال أحمس :

ـ لتفرح طيبة . أما اللقاء حين يقضى الرب بالنصر .

وأضاف حور :

ـ لا تسل يامولاى عن الحماسة التى فاضت بقلوب الشباب وتهافتهم لينضموا إلى جيش أحمس المعبود .

فابتسم الملك ، وسألهم هل زاروا معبد آمون ؟ فأجابوا : نعم . وكذلك الجنود هرعوا إليه وزاروه . وفاض المذبح بالقرابين ، وترددت الصلوات فى جنبات المعبد . أما نوفر آمون فلم يبرح عزلته .

فابتسم الملك . ولاحت منه التفاته ، فرأى القائد أحمس أبانا صامتا مكتئبا . فأشار إليه أن يقترب . ووضع الملك يده على منكبه ، وواساه ، وذكّره بشعار أسرته « الشجاعة والعطاء » ، فحنى القائد رأسه شاكراً .

واستشار الملك رجاله فيمن يختاره حاكما لطيبة ، ويعهد إليه بمشقة تنظيمها ، فقال القائد محب :

ـ خير من يصلح لهذا المنصب الخطير ، الرجل المخلص الحكيم حور ..

فقال حور :

ـ إن واجبى هو السهر على خدمة مولاى لا فى التخلّف عنه .

فقال أحمس :

ـ صدقت .. وأنا لا أستغنى عنك .

فقال حور :

ـ يوجد رجل فاضل عظيم الدراية والخبرة ، معروف بالحكمة وأصالة الرأى ، هو

توتى آمون وكيل معبد آمون . فإذا شاء مولاى فليعهد إليه بشئون طيبة .

فقال أحمس :

ـ قد وليناه طيبة .

ثم دعا الملك رجاله إلى تناول الفطور على مائدته .

١٧

مضت ساعات النهار والجيش يضمّد جراحه ، ويأخذ قسطا من الراحة واللهو والغناء . سارع الجنود الطيبيون إلى منازل أهلهم ، فتعانقت القلوب وامتزجت النفوس ، وصارت طيبة كأنها قلب الدنيا الخافق . أما أحمس فلم يبرح سفينته . ودعا الضابط المكلّف بحراسة الأميرة وسأله عنها . فقال له الرجل : إنها باتت ليلتها دون أن تذوق طعاما . وكان أحمس يفكر فى وضعها فى سفينة أخرى ، ولكنه لم ينته إلى رأى قاطع . ولم يشك فى أن حور غير راض عن وجودها فى سفينته . وأيقن أن الحاجب يشق عليه أن تنال ابنة أبوفيس هذه الحظوة لديه . وكان يعرف حور حق المعرفة . ويعرف أنه لا يشغل قلبه سوى كفاح طيبة . أما هو ، فكانت عواطفه متعطشة فائرة . وكان يكابد من صرف نفسه عن أن تحوم حول المخدع وصاحبته ، وعن التفكير فيها ، والتعلق الشديد بها ، رغم ما به من سخط وغضب . وكان يتلمّس الأعذار لصلفها وكبريائها ، ويذكر لها إنقاذها لحياته ، وقلقها لغيابه ، فكتبت إليه الرسالة التى تضمر الحب المكتوم .

انتظر الأصيل وهزّ كتفيه استهانة ، وذهب إلى المخدع . فرآها تجلس فى جمود وهدوء ، تلوح فى عينيها الزرقاوين الكآبة والملل . فوقف أمامها جامدا ، فاستوت فى جلستها ، ورفعت إليه عينين باردتين ، فقال لها برقة :

ـ كيف كانت ليلتك ؟ .

فلم تجب ، وخفضت رأسها تنظر إلى الأرض . فأعاد سؤاله : وبدا عليها أنها لا تريد أن تخرج عن الصمت . ولكنها رفعت رأسها بحدة وقالت :

ـ كانت أسوأ ليالىّ .

ـ لماذا ؟ هل يعوزك شيء ؟ .

ـ يعوزني كل شيء .

ـ كيف ؟ لقد أمرت الضابط المكلف بحراستك ..

فقاطعته بتبرم قائلة :

ـ لا تتعب نفسك .. يعوزني كل شيء أحبه .. يعوزني أبي وقومي وحريتي .. وأكره كل ما تقدمه .. هذه الثياب ، وهذا الطعام ، وهذا المخدع وهؤلاء الحراس ..

واستمرت حدة الحديث بينهما ، وتمادت في صلفها وكبريائها ، وهددت بالامتناع عن الطعام لتموت ، ولا تقع في ذل الأسر أو عذابه .

وضاق الملك بحديثها ، وكان يعاني مرارة الخيبة ، فلم يطق البقاء . وقال وهو يهم بمغادرة المخدع :

ـ لا حاجة بك إلى الامتناع عن الطعام .

وغادر المخدع مغضبا ساخطا . وقد بيّت نيته على أن ينقلها إلى سفينة أخرى . ولكن ما كاد غضبه يهدأ ، بعد أن خلا إلى نفسه في المقصورة ، حتى عدل عن نيته ، ولم يصدر أمره بنقلها .

١٨

مثَل الحاجب حور بين يدى الملك في مقصورته ، وقال :

ـ مولاى .. رسل من أبوفيس يستأذنون في المثول بين يديك .

فتعجب أحمس ، وسأله :

ـ ماذا يريدون ؟ .

ـ قالوا إنهم يحملون رسالة لذاتك العليا ..

ـ ادعهم .. سريعا .

دخل الرسل . وكانوا ثلاثة يتقدمهم كبيرهم ، ويتبعه اثنان يحملان صندوقا من العاج . وكانوا كما يبدو من ثيابهم الفضفاضة .. من الحجاب : بيض الوجوه .. طوال اللحى . وقد رفعوا أيديهم بالتحية دون انحناء . ووقفوا في غطرسة ظاهرة . فرد

صفحة فارغة

أحمس تحيتهم فى كبرياء ، وسألهم :

ـ ماذا تريدون ؟ .

فقال كبيرهم بلهجة أعجمية متغطرسة :

ـ أيها القائد ..

فلم يجعله حور يتم عبارته .. وقال له بهدوئه :

ـ أنت تحدّث فرعون مصر يارسول أبوفيس .

فردّ على حور :

ـ الحرب ماتزال مستعرة . ولم يفصل فيها بعد . ومادام لنا رجال وفى أيدينا سلاح ، فأبوفيس فرعون مصر لا شريك له .

فأشار أحمس إلى حاجبه بالسكوت . وقال للرسول :

ـ تكلم فيما جئت من أجله .

فقال :

ـ أيها القائد : خطف الفلاحون يوم الانسحاب من طيبة صاحبة السمو الفرعونى الأميرة أمنريدس ، كريمة مولانا الملك أبوفيس فرعون مصر وابن الرب ست . ومولانا يريد أن يعلم هل ابنته على قيد الحياة ، أو قتلها الفلاحون ؟ .

ـ هل يذكر مولاك ما فعله بنسائنا وأطفالنا فى حصار طيبة ؟ وجنودكم الجبناء محتمون بهم ؟ .

فقال الرجل بحدة :

ـ مولاى لا يتنصّل من عاقبة عمله . والحرب نزال للموت ولا مكان فيها للرحمة .

فهز أحمس رأسه بنفور ، وقال :

ـ بل الحرب نزال بين الرجال . وأعجب ، إذا كان هذا هو رأى مولاكم فى الحرب ، فكيف يسأل عن ابنته ؟ .

فقال الرسول بإباء :

ـ مولاى يستفهم لغاية فى نفسه .. فلا هو يسترحم ولا هو يخاف .

وفكّر أحمس مليا ، وأدرك الباعث الذى حدا بعدوه إلى السؤال عن ابنته .

ولذلك قال بوضوح ، وبلهجة دلت على الاحتقار :

ـ عد إلى مولاك ، وقل له إن الفلاحين قوم شرفاء ، لا يغتالون النساء ، والجنود المصريين يترفّعون عن قتل أسراهم ، وإن ابنته أسيرة تتمتع بنبل آسريها .

فبدا على الرجل الارتياح ، وقال :

ـ كلماتك هذه ، أنقذت أرواح الآلاف من قومك ، نساء ورجالا ، ممن أسرهم الملك ، وجعل حياتهم رهينة بحياة سمو الأميرة .

فقال له أحمس :

ـ وحياة الأميرة رهينة بحياتهم .

صمت الرجل مليا ، ثم قال :

ـ وقد أُمِرْت ألا أعود حتى أراها بنفسي .

وبدا الرفض على وجه حور . ولكن أحمس بادر الرسول قائلا :

ـ ستراها بنفسك .

فأشار الرجل إلى الصندوق العاجي الذى يحمله تابعاه ، وقال :

ـ وهذا الصندوق يحوى بعض ثيابها . فهل تأذن لنا فى تركه فى حجرتها .

فسكت الملك هنيهة ، ثم قال :

ـ لك هذا .

ولكن حور مال إلى مولاه وهمس قائلا :

ـ ينبغى أن نفحص الثياب أولا .

فوافق الملك . فأمر حور بوضع الصندوق بين يدى الملك ، ثم فتحه ، وأخرج ما به ثوبا ثوبا . وعثر على صندوق صغير ، فأمسك به ، وفتحه . فإذا به عقد ذو قلب زمردى . وارتعد قلب الملك لمرآه . وتذكر كيف انتقته الأميرة ، يوم كان يدعى أسفينيس ، ويبيع اللآلئ .. فتورّد وجهه . أما حور فقال :

ـ هل الأسر مكان صالح للزينة ؟ .

فقال الرسول :

ـ هذا العقد حلية الأميرة المفضّلة لديها .. فإن شاء القائد أبقيناه ، وإلا أخذناه معنا .

فقال أحمس :

ـ لا بأس بإبقائه .

ثم التفت الملك إلى الضباط ، وأمرهم باصطحاب الرسل إلى مخدع الأميرة .

١٩

فى ذات المساء ، لحقت بالجيش قوات مدربة من الجنوب . ورست فى ميناء طيبة سفن صغيرة محملة بالأسلحة وقباب الحصار ، قادمة من أمبوس . وبشّر رُبَّانها الملك بأنه ستصله ، عما قريب ، قوة من العجلات والفرسان المدربين . كذلك انضم إلى الجيش رجال من طيبة . واستعاض جيش أحمس ما فقده من الرجال . ولم ير الملك داعيا إلى البقاء فى طيبة أكثر مما بقى . فأمر قواده بالاستعداد للزحف شمالا فجر الغد .

وعند مطلع الفجر ، تحرّك الجيش العرمرم صفوفا كأمواج البحر ، تتقدمه الطلائع ، ويسير فى مقدمته الملك وحرسه ، ثم فرقة العجلات تتبعها الفرق الأخرى . وأقلع الأسطول بقيادة أحمس أبانا ، يشق مياه النيل بوحداته القوية . وتواثب الجميع للقتال والنصر . واستقبل الجيش فى القرى بحمسة دافقة ، وخرج الفلاحون يهتفون ويلوحون بالأعلام وسعف النخل .

وعند الضحى ، وصل الجيش إلى شنهور . ودخلها بغير مقاومة . ثم أمسى فى قسىّ ، ففتحت له أبوابها ، وباتوا جميعا فيها . واستأنفوا المسير مع الفجر . وواصلوا السير حتى شارفوا ميدان كبتوس الذى ينتهى بالمدينة . وهنا شمل الجيش صمت حزين ، وطافت الذكريات بالرءوس . وتذكر أحمس الهزيمة التى حلت بجيش طيبة فى هذا الوادى ، لعشرة أعوام خلت أو تزيد . وذكر مصرع جده الباسل سيكننرع الذى ارتوت هذه الأرض بدمه . ولاحت منه التفاتة نحو حور ، فرأى عينيه مغرورقتين بالدموع . ولكنه سارع إلى تجفيف دموعه ، وقال للملك :

ـ فلنصلِّ جميعا ، يامولاى ، على روح مليكنا الشهيد سيكننرع وجنوده البواسل. صلوا جميعا صلاة حارة .

٢٠

دخل الجيش مدينة كبتوس ، وخفق علم مصر على أسوارها . وهتف الجنود طويلا لذكرى سيكننرع . ثم زحف الجيش إلى مدينة بعد أخرى دون أن يعثر برجل من العدو وجيوشه الجرارة . ووصل إلى أبيدوس ، ففتحت أبوابها لجيش الخلاص . ودخلها دخول الجيش المظفر واستراح بها يومه .

كان أحمس يتعطش للحرب لعله يلقى عدوه فى موقعة فاصلة . كما كان يتوق إلى أن ينشغل فى القتال لينسى نوازع نفسه وأحزان فؤاده . ولكن أبوفيس أبى عليه ذلك . فوجد أفكاره تحوم حول الأسيرة العنيدة . وتذكر أحلامه ، حين ظن أن الأقدار السعيدة قد دفعتها إلى أسره ، وحين طمع فى أن يجعل سفينة الأسر ، جنة من جنان الحب . ثم تذكر إباءها وكبرياءها وجدالها . ولكن .. كانت رغبته إلى الحب قوية لا تقاوم . فجرفت عوائق التردد والكبرياء عنده . فذهب إلى السفينة ، وقصد إلى المدخل المسحور ودخل . وكانت جالسة جلستها المعهودة على الأريكة ، ملتفة فى ثوب رقيق . وكأنها عرفت وقع خطاه ، فلم ترفع إليه رأسها ، وظلت تنظر إلى ما بين قدميها . وجرى بصره على مفرق شعرها وجبينها وجفنيها المسبلين ، فأحس برغبة فى أن يرتمى عليها ، ويضمها بين ذراعيه ، ولكنها رفعت رأسها بغتة ، ورمته بنظرة باردة . فلبث فى مكانه جامدا ، ثم سألها :

ـ هل زارك الرسل ؟ .

فقالت بلهجة لا تنم عن عاطفة :

ـ نعم .

فجال ببصره فى الحجرة ، حتى استقر على الصندوق العاجى ، وقال :

ـ أذنت لهم أن يوصلوا إليك هذا الصندوق .

فقالت بجفاء :

ـ شكرا لك .

ـ وكان بالصندوق العقد ذو القلب الزمردى .

فاضطربت شفتاها ، وأرادت أن تتكلم ، ولكنها عدلت فجأة .

فقال أحمس برقة :

ـ قال الرسل : هذا العقد عزيز لديك .

فهزت رأسها بعنف ، وكأنها تنفى عن نفسها تهمة ، وتهربت فى إجابتها . لم ييأس ، وحاول أن يذكّرها بقصة العقد . فقالت بغضب :

ـ لا أذكر اليوم نزوة كانت بالأمس . ويجمل بك أن تحدّثنى حديث العدو لأسيره .

تجرّع الخيبة مرة أخرى ، وقال :

ـ ألم تعلمى أننا نضم نساء أعدائنا الأسرى إلى حريم قصورنا ؟ .

فقالت بحدة :

ـ لن تستطيع .

ـ هل تعودين إلى التهديد بالصوم عن الطعام ؟ .

ـ لا حاجة لى به الآن ؟ .

فسألها متهكما :

ـ وكيف تقاومين ؟ .

فأرته سلاحا صغيرا جدا فى كفها ، وقالت :

ـ انظر . هذا خنجر مسموم ، إذا خدشت به جلدى سرى سمه فى دمى ، وقضى علىّ فى لحظات . دسّه إلىّ الرسول فى غفلة من رقبائك . فعلمت أن أبى يضع بين يدىّ ما أقضى به على نفسى ، إذا مسّنى ذل أو تحرش بى أحد .

فغضب أحمس ، وعبس وجهه ، وقال :

ـ أهذا هو سر من أسرار الصندوق ؟ سحقا لمن يطمئن إلى كلمة خنزير من الرعاة ذوى اللحى القذرة . الخيانة تسرى فى عروقكم مسرى الدم . ولكن أراك تخطئين فهم رسالة أبيك . فقد دسّ إليك هذا الخنجر ، لتقضى به علىّ .

فهزت رأسها كالساخرة ، وقالت :

ـ أنت لا تفهم أبوفيس . إنه يأبى إلا أن أعيش كريمة أو أموت كريمة . أما عدوه فسيقضى عليه بنفسه ، كما تعوّد مع أعدائه .

فضرب أحمس الأرض بقدمه ، وقال بحنق شديد :

ـ لماذا كل هذا العناء؟ ما أنت إلا جارية أعماها الغرور والكبرياء والطبع الفاسد . لقد توهمتك شيئا ، فيما مضى .. وظهرت حقيقتك غيره تماما .. فسحقا للأوهام جميعا .

وغادر المخدع ، وأمر كبير حراسها بنقلها إلى سفينة أخرى تحت الحراسة الشديدة . وغادر السفينة ضيّق الصدر ، مكفهر الوجه . وعاد فى عجلته إلى المعسكر .

٢١

ضاق الملك بالسكون ، فأمر قواده بالتأهب .

وفى فجر اليوم التالى ، زحف الجيش بجموعه الجرارة ، وأقلع الأسطول ، فبلغ بطلمايس فى يومين . ولم يظهر حولها أثر للعدو . فدخلتها الطلائع فى سلام . وتبعها الجيش . وأوغلت الطلائع شمالا حتى بانوبوليس آخر بلدان طيبة الشمالية . ودخلتها بلا مقاومة . وزفت البشرى إلى الملك أحمس ، فصاح :

ـ لقد جلا الرعاة عن مملكة طيبة .

فقال حور :

ـ وسيجلون عن مصر قريبا .

ودخل الجيش بانوبوليس مزهوا ظافرا . ونفخ فى الأبواق إعلانا للنصر. ورفعت الأعلام المصرية على سور المدينة ـ وانتشر الجنود فى الأسواق ، واختلطوا بأهلها ، يهتفون : وينشدون . وشمل المدينة فرح جنونى . وأولم الملك وليمة فاخرة ، لقواد الجيش والأسطول والحاشية . وقال الملك لرجاله :

ـ غدا نخترق حدود المملكة الشمالية ، ونرفع أعلام مصر على أسوارها ، لأول مرة منذ أكثر من مائة عام .

فصاح الرجال ، وهتفوا طويلا باسمه .

ولكن فى أصيل ذلك اليوم ، رأى الحراس كوكبة من العجلات قادمة ، تعدو نحو المدينة ، من الشمال ، رافعة راية بيضاء . فأحاط بها الجند ، وسألوا عن

صفحة فارغة

مقصدها . فقال أحد رجالها إنهم رسل أبوفيس إلى أحمس . فمضى بهم الحراس إلى المدينة ـ وعلم أحمس ، فذهب إلى قصر حاكم المدينة ، ومعه حور وقائد الأسطول والقائدان محب وريب .

وجلس الملك على كرسى الحاكم ، وأذن للرسل بالدخول . وكانوا خليطا من القواد والحجاب ، فى الثياب العسكرية والمدنية ، تسبقهم لحاهم الطويلة . ولم يكن يبدو على وجوههم شىء من التحدى والغلظة ، كما توقع أحمس . بل اقتربوا من مجلس الملك ، وانحنوا جميعا فى إجلال واحترام ، حتى كاد الملك يعلن دهشته . وقال كبيرهم :

ـ حياك الرب ياملك طيبة . نحن رسل فرعون مصر السفلى والوسطى إليك .

فألقى أحمس عليهم نظرة دهشة ، وقال بهدوء :

ـ حياكم الرب يارسل أبوفيس . ماذا تريدون ؟ .

وبدا على الرسل الاستياء لعدم ذكر أحمس ألقاب مليكهم .

ولكن كبيرهم قال :

ـ أيها الملك ، نحن رجال حرب ، شجعان بواسل . ونعجب بالبطل ، وإن كان عدوًّا لنا . وننزل عند حكم السيف ، وإن كان علينا . ولقد انتصرت أيها الملك ، واستردت عرش مملكتك . فحقٌّ لك ملكها ، كما حقٌّ علينا تسليمها . فهى مملكتك ، وأنت مليكها . وفرعون يقرئك السلام ، ويعرض عليك حقن الدماء ، وصلحا شريفا يحترم الحقوق ، ويصل ما انقطع من علاقات المودة بين مملكة الجنوب ومملكة الشمال .

أصغى الملك فى هدوء ظاهر ودهشة باطنة ، وسأل الرجل :

ـ أجئتم حقا تطلبون سلاما ؟ .

فقال الرجل :

ـ نعم أيها الملك .

فقال أحمس بصوت فيه عزم وحزم :

ـ وأنا أرفض هذا السلام .

ـ ولماذا تصر على الحرب أيها الملك ؟ .

فقال أحمس :

ـ لأنى ما أعلنتها عليكم لأسترد طيبة . ولكنى عاهدت ربّى وقومى على أن أحرر مصر جميعها . فإذا كان الذى بعثكم ، يريد السلام .. فليترك مصر لأهلها ، وليرجع بقومه إلى صحارى الشمال التى جاء منها .

فسأله الرسول بصوت غليظ :

ـ أهذه هى الكلمة الأخيرة ؟ .

فأكدها أحمس بثقة وقوة . فقام الرسل واقفين ، وقال كبيرهم :

ـ ما دمت تريد الحرب ، فستكون حربا ضروسا بيننا وبينكم .

وانحنى الرجال للملك مرة أخرى ، وغادروا المكان فى خطى ثقيلة .

٢٢

لبث أحمس فى بانوبوليس يومين كاملين . ثم أرسل الطلائع لاختراق حدود دولة أبوفيس . وزحف أحمس على رأس جيش لم تشهد مصر له مثيلا فى عَدده أو عُدده . وأقلع أسطول أحمس أبانا الجبار .

وفى طريق الزحف ، أبلغت الطلائع الملك أن جيش الرعاة معسكر فى جنوب أفروديتوبوليس فى جموع لا يحيط بها الحصر. ولم يكن يهم الملك عدد الرعاة . ولكنه سأل الحاجب حور :

ـ هل ياترى ، لايزال لدى أبوفيس قوة من العجلات يلقانا بها ؟ .

فقال حور :

ـ ما من شك يامولاى ، أن أبوفيس قد فقد العدد الأكبر من فرسانه ، وإلا ما طلب الصلح وسعى إلى السلام . والأهم أن الرعاة فقدوا ما هو أغلى من الفرسان والعجلات ، فقدوا الثقة والأمل .

واستمر تقدم الجيش ، حتى اقترب من معسكر عدوه . ولاح فى الأفق نذير المعركة . فتأهبت فرقة العجلات لخوض المعركة بقيادة الملك .

وأهاب بالقواد قائلا :

ـ سنقاتل على أرض حرّمت علينا أكثر من مائتى عام . فلنتقدم بقلوب قوية ، ولنضرب ضربة هائلة ، وقد حبانا الرب بالعدد والأمل . أما العدو فقد خذله بالخسائر واليأس . وإنى على رأسكم ، كما كان سيكننرع وكما كان كاموس .

وأمر الملك طلائعه بالهجوم ، فانقضّت كالنسور الكاسرة . وراقبها الملك ليرى كيف يلقاها العدو . فشاهد قوة من عجلاته ، تقدر بمائتين ، ترد على هجومها ، وتحاول الإحاطة بها لحصارها . فانقض الملك من جميع الجهات ، يهاجم على رأس فرقة العجلات ، تدفعه الرغبة فى القضاء على عجلات العدو . وأدرك الهكسوس أن فرسانهم لا يمكن أن يثبتوا أمام قوات تفوقهم أضعافا . فقذف أبوفيس بكتائب من الرماة وحملة الرماح . ودارت معركة شديدة . ولم تنفع الرعاة شجاعتهم ، وقُضِى على قواتهم الراكبة .

وبات الجيش ليلته ، وأحمس لا يدرى ، أيلقاه أبوفيس بمشاته مستيئسا ، أم يفرّ بجيشه مؤثرا السلامة كما فعل من قبل .

ووضح الأمر فى الصباح ، حين رأى الملك جموع الرعاة تتقدم لاحتلال مواقعها ، والأقواس والرماح فى أيديها .

وقال حور عندما شاهدهم :

ـ الآن تدور الدائرة عليهم يامولاى . ويتعرض أبوفيس بمشاته لبأس عجلاتنا ، كما تعرض مليكنا سيكننرع لبأس عجلاته قبل عشرة أعوام .

فانشرح صدر الملك . وتهيأ للهجوم بفرقة العجلات تؤيدها قوات مختارة من الرماة وفرق الأسلحة الأخرى . وانقضت العجلات على مواقع الرعاة ، تملأ الجو أمامها بسهامها الطائرة . فاخترقت الصفوف فى مواضع كثيرة ، والرماة وراءها يحمون ظهورها ، ويطاردون من يتفرّق من العدو ، فيقتلون ويأسرون .

قاتل الرعاة بما عرف عنهم من شجاعة ، ولكنهم كانوا يتساقطون سقوط الأوراق الجافة التى تعرضت لرياح الخريف العاتية . وسيطر المصريون على الميدان ، وخشى أحمس أن يفلت أبوفيس من يده ، فهاجم أفروديتوبوليس ، كما هاجم الأسطول شواطئها ، ولكنه لم يجد أثرا للرعاة داخل أسوارها . ثم وافته الكشافة بأن أبوفيس فارق المدينة مع قوات جيشه بعد هجوم ليلة أمس . فقال حور للملك :

ـ لعل أبوفيس يسرع الآن ، إلى هواريس ليحتمى بأسوارها المنيعة .

ولم يأسف أحمس طويلا على إفلات أبوفيس من يده . وكان سروره بالغا بفتحه بلدا من بلاد مصر التى حرم دخولها على قومه مائتى عام . واشتغل بتفقد أحوالها وأهلها عن كل شىء .

٢٣

تقدم الجيش فى زحفه العظيم ، لا يجد مقاومة ولا أثرا للعدو . يستقبله أهل البلدان والقرى ذاهلين من الفرح ، لا يصدقون أن الذى يحرر بلدانهم من عدوهم ، ملك منهم ، يبعث مجد الفراعين من جديد . ووجد أحمس أن الرعاة قد فروا عن المدن ، تاركين قصورهم وضياعهم ، حاملين ما استطاعوا حمله من متاعهم وأموالهم . وسمع ، فى كل مكان وصله ، أن أبوفيس يسرع فى الهرب بجيشه وقومه إلى الشمال .

استرد الملك فى شهر ثلاث مدن كبيرة مع القرى المحيطة بها . ثم بلغ هرموبوليس ، مسقط رأس الأم المقدسة توتيشيرى . فكان لدخولهم فيها وقع عظيم فى نفس أحمس ، وكتب إلى جدته رسالة مؤثرة يهنئها فيها باسترداد موطنها الأول .

ثم تقدم الجيش فى زحفه المظفر . ودخل بلدة بعد أخرى ، إلى أن انحدر بين الأهرام فى طريق منف العظيمة ، غير عابئ بمشاق السفر وطول الطريق . وكان أحمس يفك القيود ، ويحطم الأغلال التى يعيش فيها شعبه البائس ، وينفخ فيه من روحه الكبيرة حياة جديدة ، حتى قال له حور يوما :

ـ عظمتك الحربية يامولاى ، لا يضارعها سوى مقدرتك السياسية وكفاءتك الإدارية . لقد غيّرت معالم البلدان ، فمحوت أنظمة وأنشأت أنظمة ، ووليت حكاما وطنيين ، فدبت الحياة مرة أخرى فى شرايين الوادى . وشاهد الناس لأول مرة ـ منذ عهد طويل ـ حكاما مصريين وقضاة مصريين . فارتفعت الرءوس المنكسة ، ولم يعد أحد يُعيَّر بسمرته ، بل صارت مفخرته .

أَلاَ فليحفظك الرب آمون ، ياحفيد سيكننرع .

كان الملك يعمل مخلصا جاهدا ، لا يعرف اليأس أو الكلل ، ليرد إلى قومه العزة والشبع والرغد والعلم .

على أن قلبه لم ينج من همومه الخاصة . فأعياه الهوى والكبرياء . وكان كثيرا ما يضرب الأرض بقدمه ، ويقول لنفسه : « لقد خُدِعت .. وما هى إلا امرأة بلا قلب » . وكان يرجو أن يجد فى العمل النسيان والعزاء . ولكنه وجد روحه تسرى ، بالرغم منه ، إلى تلك السفينة .. فى مؤخرة أسطوله .

٢٤

استمر زحف الجيش ، وأخذ يقترب من منف الخالدة حتى لاحت له أسوارها البيضاء العالية . وظن أحمس أن الرعاة سيدافعون عن عاصمة ملكهم دفاع المستميت . ولكن أخطأ ظنه . ودخلت طلائعه المدينة فى سلام . وعلم أن أبوفيس تقهقر بجيشه نحو الشمال الشرقى ، فدخل أحمس منف فى حفل شعبى لم يشهد له مثيلا من قبل . واستقبله أهلها استقبالا حماسيا مهيبا . وسجدوا له ودعوه ابن منفتاح .

مكث الملك فى منف عدة أيام ، زار ربوعها ، وشاهد أسواقها وأحياءها الصناعية ، وطاف بالأهرامات الثلاثة ، وصلّى فى معبد أبى الهول ، وقدم فيه القرابين . وكان أحمس يعجب كيف لم يدافع الرعاة عن منف . فقال القائد محب :

ـ بأس عجلاتنا يامولاى ، ولن يتعرّضوا لها مختارين .

وقال الحاجب حور بثقة :

ـ السفن ، يتوالى مجيئها إلينا ، محملة بالعجلات والجياد من مقاطعات الجنوب . وليس أمام أبوفيس إلا الالتجاء إلى أسوار هواريس .

وتشاوروا فى الوجهة التى يتجهون إليها بعد أن انبسطت رقعة الغزو أمامهم ، فقال القائد ريب :

ـ لاشك أن العدو جلا عن الشمال كله ، وانحصر فى الشرق وراء أسوار هواريس . فينبغى أن نتجه إليه بقواتنا كاملة .

صفحة فارغة

غير أن أحمس كان شديد الحذر. فأرسل جيشا صغيرا إلى الغرب ، وآخر إلى الشمال ، وسار بقواته الرئيسية وأسطوله العظيم شرقا فى طريق أون . ومضت الأيام ، وهم يسيرون فى الأرض تدفعهم الحماسة والأمل ، أن يضربوا الضربة الأخيرة ، ويكللوا كفاحهم الطويل بالنصر الحاسم . ودخلوا أون مدينة رع الخالدة ، ثم بلدتين بعدها ، وسلكوا الطريق المؤدى إلى هواريس ، إلى أن لاحت أسوارها الهائلة ، فصاح أحمس :

ـ هذا آخر حصن للرعاة فى مصر.

فقال له حور ، وهو ينظر إلى الحصن .

ـ حطّم أبوابه يامولاى ، يخلّص لك وجه مصر الجميل .

٢٥

وقف أحمس ورجاله جنوبى الحصن الهائل ، يقلّبون وجوههم حيارى فى الأسوار العظيمة المترامية . وضرب الجيش خيامه ، وامتدت صفوف الجند محاذين السور الجنوبى . وتقدم الأسطول فى النهر غربى السور الغربى . وكان أحمس يستمع إلى ما يقوله أهل المدينة عن الحصن ، ويفحص الأرض المحيطة به والنهر الجارى غربه ، وكان عقله لايكف عن التفكير. وفى أثناء ذلك ، سيّر قوات راكبة ومشاة إلى القرى المحيطة بالمدينة ، فاستولت عليها دون عناء . وأصبح حصاره للحصن كاملا فى زمن يسير. ولكنه ورجاله ، كانوا يعلمون أن الحصار لا نتيجة له . فالمدينة مكتفية بحقولها الشاسعة داخل أسوارها . فلن يؤثر الحصار فيها شيئا ولو امتد أعواما . وسيبقى أحمس هو وجيشه يعانيان الملل والانتظار فضلا عن أهوال الجو وتقلباته .. وبدون أمل . وفيما كان أحمس يجول حول الحصن ، خطر له خاطر. فدعا رجاله إلى خيمته ليشاورهم ، وقال لهم :

ـ أشيروا علىّ . إنى أرى الحصار ضياعا للوقت وتبديدا للقوى . وأرى الهجوم نوعا من العبث ، وانتحارا صريحا لنا . ولعل العدو يتمنى أن نهجم عليه ، ليصيد رجالنا البواسل ، أو يوقعهم فى خنادقه . فما الرأى ؟ .

فعرض القائد ريب رأيا عارضه حور وانتقده . فقال القائد محب بحماسة :

ـ لقد دفعنا ثمن طيبة غاليا . والكفاح بذل وفداء . فلماذا لا نؤدى ثمن هواريس ، ونهجم كما هجمنا على حصون طيبة ؟ .

فقال القائد ريب :

ـ نحن لا نضنّ بنفوسنا . ولكن الهجوم على أربعة أسوار ضخمة تفصل بينها خنادق ملأى بالماء ، هلاك لجنودنا بلا ثمن .

وكان الملك صامتا يفكر . فقال وهو يشير إلى النهر الجارى تحت سور المدينة الغربى :

ـ هواريس حصينة ، لا تؤخذ ولا تجوع .. ولكنها قد تظمأ ! .

فنظر الرجال إلى النهر ، وبدت على وجوههم الدهشة . وقال حور بذهول :

ـ كيف تظمأ هواريس يامولاى ؟ .

ـ بأن نحوّل عنها مياه النيل .

ـ وهل يمكن القيام بهذا العمل الجبار ؟ .

ـ لا يعوزنا المهندسون ولا العمال .

ـ وكم تقتضينا من الوقت يامولاى ؟ .

ـ عاما أو عامين أو ثلاثة أعوام . ماذا يهم الزمن ما دامت هذه هى الوسيلة الوحيدة . فيصبح على أبوفيس الاختيار بين الموت ظمأ أو الخروج لقتالنا .

وسيغفر لى شعبى أنى عرضّت للخطر والهلاك من فى هواريس من المصريين المزارعين وهم القلّة ، كما غفر لى أن فعلت ذلك ببعض نساء طيبة .

٢٦

توفر مهندسو طيبة المشهورون على دراسة فكرة أحمس ، باهتمام وشغف . وقالوا إنه يمكن تنفيذها ، بشرط أن يُفسح لهم فى الزمن ، وإمدادهم بآلاف العمال . وعلم أحمس أن مشروعه يلزمه عامان للتنفيذ . وبعث بالرسل إلى البلدان يحثون أهلها على التطوع للعمل العظيم . وجاء العمال جماعات . وافتتح الملك المشروع العظيم ، وأمسك

فأسا وضرب به فى الأرض معلنا ابتداء العمل . فتبعته السواعد المفتولة تكدّ وتعمل على نغمات الأغانى والأناشيد .

ولم يكن أمام الملك وجيشه ، سوى الانتظار الطويل ، والتدريب اليومى المتواصل .

وفى فترة الانتظار حمل إليه رسول رسالة من الأم المقدسة توتيشيرى ، جاء فيها :

«مولاى ابن آمون، فرعون مصر العليا والسفلى، حفظه الرب وأيده بالنصر والفوز».

« ما أسعدنا جميعا أن نعلم أن مصر حُرّرت من العبودية والهوان ، وأن عدوها ومذلّها حبس نفسه بين جدران حصنه ، ينتظر ـ فى خوف ـ القضاء عليه » ..

« وقد شاء الرب القدير أن يحبوك بعطفه ورحمته ، وأنت الذى أذللت عدوّه وأعليت كلمته ، فرزقك بغلام نورًا لعينيك ووليًّا لعهدك ، أسميته أمنحتب ، تبركا بالرب المعبود ..

« وقد تلقيته بيدى كما تلقيت أباه وجدّه وجد أبيه من قبل ..

« وقلبى يحدثنى بأنه سيكون ولىّ عهد مملكة عظيمة ، متعددة الأجناس واللغات والأديان ، يرعاها أبوه الحبيب ... » .

وخفق قلب أحمس خفقان الأبوة ، وفرح فرحا عظيما ، أنساه بعض ما يعانى من آلام الهوى المكبوت . وأعلم رجاله بمولد ولى عهده أمنحتب .. فكان يوما مشهودا .

٢٧

مضت الأيام حافلة بجلائل الأعمال التى أنجزتها أكبر العقول وأشد السواعد وأعلى الهمم . وذات يوم ، وكان قد مضى على الحصار عدة أشهر ، رأى الحراس عجلة قادمة من ناحية الحصن ، وعلى مقدمتها علم أبيض . فاستقبلها بعض الحراس ، ووجدوا بها ثلاثة من الحجاب . وقال كبيرهم إنهم رسل الملك أبوفيس إلى الملك أحمس . فأُبلِغ الملك . فعقد مجلسا من حاشيته وقواده . وأمر بإدخال الرسل إليه . وجىء بالرجال ، يسيرون فى تواضع وانكسار .. ذهبت عنهم الخيلاء والكبر .. وبدوا

كأنهم من غير قوم أبوفيس . وانحنوا بين يدى الملك . وقال كبيرهم :

ـ حياك الرب أيها الملك .

فرد عليه أحمس :

ـ وحياكم يارسل أبوفيس .. ماذا يريد ملككم ؟ .

فقال الرسول :

ـ أيها الملك .. رجل السيف رجل مغامر ، ينشد النصر ، ولكن قد يدركه الموت . ونحن رجال حرب . وقد مكّنتنا الحرب من وطنكم ، فحكمناه مائتى عام أو تزيد ، كنا فيها السادة . ثم قُضى علينا بالهزيمة ، فغلبنا على أمرنا ، وأُجبرنا على الاعتصام بقلعتنا . ونحن ، أيها الملك ، رجال أشداء نقدر على تحمل الهزيمة ، كما قدرنا على جنى ثمار النصر..

فقال أحمس غاضبا :

ـ أرى أنكم أدركتم ما يعنيه هذا التحويل الذى يجريه قومى فى مجرى النيل ، فجئتم تستعطفون .

فهز الرجل رأسه الضخم ، وقال :

ـ كلا أيها الملك . نحن لا نستعطف أحدا ، ولكنا نقر بالهزيمة . وقد أرسلنى مولاى لأعرض عليك أمرين تختار ما تشاء منهما : فإما الحرب إلى النهاية . وفى هذه الحال ، لن ننتظر وراء الأسوار حتى نموت جوعا وعطشا . ولكننا سنقتل الأسرى من قومك وهم يزيدون على ثلاثين ألفا ، ثم نقتل نساءنا وأطفالنا بأيدينا ، ونهجم على جيشك بثلاثمائة ألف مقاتل ، كلهم راغبون فى الموت متعطشون للانتقام .

وسكت الرجل حتى يجمع أنفاسه ، ثم استدرك وقال :

ـ وإما أن تردوا لنا الأميرة أمنريدس والأسرى من قومنا ، وتؤمنوننا على أرواحنا وأموالنا ومتاعنا ، فنرد لكم رجالكم ، ونخلى هواريس ، ونولّى وجوهنا شطر الصحراء التى جئنا منها ، تاركين لكم بلادكم ، وبذلك ينتهى الصراع الذى استمر قرنين من الزمان .

وسكت الرجل . فعرف الملك أنه ينتظر جوابه . ولم يكن الجواب حاضرا . فقال للرسول :

- هلاّ انتظرت حتى نقطع برأى ؟ .

فقال الرسول :

- كما تشاء أيها الملك . فمولاى أمهلنى نهار اليوم .

٢٨

اجتمع الملك برجاله فى مقصورة السفينة الفرعونية ، وقال لهم :

- أشيروا علىّ برأيكم .

وكانوا جميعا ، بغير تشاور ولا اتفاق ، على رأى واحد . فقال حور :

- مولاى ، لقد انتصرت على الرعاة فى مواقع كثيرة ، وأقروا لك بالنصر ، وعلى أنفسهم بالهزيمة . فمحوت بذلك آثار هزائمنا فى ماضينا الأسيف ، وقتلت منهم خلقا كثيرا ، فانتقمت لقتلى قومك . فلا لوم علينا ، أن نشترى حياة ثلاثين ألفا من رجالنا . ونوفّر على أنفسنا ما لا يدعو إليه واجب ، ما دام عدونا سيجلو عن بلادنا مغلوبا على أمره ، ويتحرر وطننا إلى الأبد .

وأيد القائدان ريب ومحب رأى حور . وقال أحمس أبانا :

- سنشترى حياة ثلاثين ألفا من الأسرى بالأميرة الأسيرة، وجماعة قليلة من الرعاة.

واستمع الملك إليهم باهتمام شديد ، وقال :

- نعم الرأى - ولكنى أرى أن ينتظر رسل أبوفيس فترة أخرى ، حتى لا يظن أننا أسرعنا فى الموافقة ، لضعف أو تعب من الكفاح .

وغادر الرجال السفينة ، وخلا الملك إلى نفسه . وكان ، رغم دواعى الابتهاج ، كئيبا ضيّق الصدر . لقد توّج كفاحه بالفوز المبين ، وجثا له عدوه الجبار . ومن الغد ، يحمل أبوفيس متاعه ، ويفرّ إلى الصحراء التى جاء منها . فما باله لا يفرح ولا يبتهج ؟ أو ما بال فرحه ليس صافيا ، وابتهاجه ليس كاملا ؟ لقد حلّت الساعة الخطيرة ، ساعة الوداع إلى الأبد . كان قبل هذه الساعة ، يائسا حقا ، ولكنها كانت هناك فى السفينة الصغيرة . فماذا يفعل غدا ، إذا رجع إلى قصر طيبة ، وذهبت هى إلى بطن الصحراء المجهولة ؟ أيتركها تذهب دون نظرة وداع . وأجاب قلبه : لا .

وحطم قيود الكبرياء ، وقام واقفا ، وفارق المقصورة . وأخذ زورقا إلى سفينة الأميرة الأسيرة ، وهو يقول لنفسه : « مهما يكن استقبالها فسأجد ما أقوله ... » وصعد إلى السفينة ، ومضى إلى المخدع . فحياه الحراس ، وفتحوا له . واجتاز الباب خافق الفؤاد ، فرأى الأسيرة جالسة فى الصدر . فبدت الدهشة على محياها الجميل ، فلم تكن تتوقع مجيئه . وتفحصها أحمس بنظرة عميقة ، فوجدها جميلة كعهده بها . فعض شفته ، وقال لها :

ـ أنعمى صباحا أيتها الأميرة .

فرفعت إليه عينين لم تذهب عنهما الدهشة ، ولا تدرى بماذا تجيب . فقال لها الملك بصوت هادئ :

ـ أنت منذ اليوم طليقة أيتها الأميرة .

فظهر على وجهها أنها لا تفهم شيئا ، فعاد يقول :

ـ ألا تسمعين ما أقول ؟ أنت منذ الآن حرة طليقة .

فازدادت دهشتها ، وقالت بلهفة :

ـ صحيح ما تقول ؟ صحيح ما تقول ؟ .

ـ نعم صحيح .

فأضاء وجهها ، وتورّد خدها ، ثم ترددت هنيهة ، وتساءلت :

ـ ولكن كيف كان ذلك ؟ .

ـ طبعا تتمنين أن يكون انتصار أبيك هو الذى ردّ إليك حريتك ، ولكنها ، للأسف ، هزيمته هى التى أنهت عبوديتك .

فأمسكت لسانها ، ولم تنبس بكلمة . فأخبرها باختصار ، بما عرضه عليه رسول أبيها ، وما تم الاتفاق عليه . ثم قال : وعما قليل تذهبين إلى أبيك وترحلين معه . فمبارك عليك .

كست ظلال الحزن وجهها ، وجمدت أساريرها ، فسألها أحمس :

ـ هل حزنك للهزيمة أكبر من فرحك لحريتك ؟ .

فقالت :

ـ يجدر بك ألا تشمت بى . سنغادر بلادكم كراما كما عشنا فيها كراما .

صفحة فارغة

فقال أحمس بجزع ظاهر :

ـ لست أشمت بك أيتها الأميرة . لقد ذقنا مرات الهزيمة من قبل . ونشهد لكم ، بعد الحروب الطويلة ، بالشجاعة والبسالة .

فقالت بارتياح :

ـ شكرا لك أيها الملك .

وسمعها لأول مرة ، تتكلم بلهجة خالية من الغضب والكبرياء ، فتأثر وقال لها ، وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـ أتدعيننى ملكا أيتها الأميرة ؟ .

فقالت وهى تغض بصرها :

ـ لأنك ملك هذا الوادى دون شريك . أما أنا فلن أدعى أميرة بعد اليوم .

فازداد تأثر الملك ، وقال بحزن :

ـ أيتها الأميرة ، لقد خبرتم الحياة حلوها ومرها ، ولايزال أمامكم الغد .

فقالت بطمأنينة عجيبة :

ـ نعم أمامنا الغد وراء سراب الصحراء المجهولة ، وسنلاقى حظنا ببسالة .

ساد الصمت ، والتقت عيناهما ، فقرأ فى عينيها الصفاء والرقة ، فتذكر صاحبة المقصورة التى أنقذت حياته ، وسقته رحيق المودة والحنان . وكأنه يراها لأول مرة بعد ذلك العهد الطويل ، فزلزل فؤاده ، وقال بجد وجزع :

ـ عما قليل يفرّق بيننا البعد ، ولن تبالى بذلك . ولكنى سأذكر دائما أنك كنت معى فظة غليظة .

فلاح الحزن فى عينيها ، وافترّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة ، وقالت :

ـ أيها الملك ، أنت لا تعرف عنا إلا القليل . نحن قوم ، الموت أحب إلى نفوسهم من الهوان .

ـ لم أُرِدْ بك الهوان قط . ولكن غرّنى الظن بأن لى منزلة عندك .

فقالت بصوت خافت :

ـ أليس من الهوان أن أفتح ذراعيّ لآسرى وعدو أبى .

ـ الحب لا يعرف هذا المنطق .

فلاذت بالصمت ، وكأنها تؤمّن على قوله . وتمتمت بصوت خافت « لا ألومن إلا نفسى » . وبحركة فجائية ، مدت يدها إلى وسادة فراشها ، وأخرجت من تحتها العقد ذا القلب الزمردى ، ووضعته حول عنقها بهدوء واستسلام : فارتمى جانبها غير متمالك ، وأحاط عنقها بذراعه ، وضمها إلى صدره بجنون وعنف ، ولم تقاومه البتة ، ولكنها قالت بحزن :

ـ لقد فات الأوان .

فاشتد ضغط ذراعيه حولها ، وقال بصوت متهدج :

ـ أمنريدس .. كيف هان عليك أن تقولى هذا ؟ كلا لن أدعك تذهبين .

فنظرت إليه بعطف وإشفاق ، وقالت له :

ـ وماذا أنت فاعل ؟ .

ـ سأبقيك إلى جانبى ؟ .

ـ ألا تدرى ما يقتضيه بقائى إلى جانبك ، هل تضحى من أجلى بثلاثين ألف أسير من قومك ، وبأضعافهم من جنودك ؟ .

اصغ إلىّ ياأسفينيس ، ودعنى أناديك بهذا الاسم العزيز . ليس بدّ من الفراق . سنفترق .. سنفترق .. فأنت لا ترضى التضحية بالأسرى من قومك .. ولا أنا أرضى بتقتيل أبى وقومى .. فليتحمل كل منا نصيبه من الألم .

فنظر إليها بذهول ، وقال لها برجاء :

ـ أمنريدس .. لا تتعجلى اليأس .. دعينى أطرق جميع الأبواب ، حتى باب أبيك .. فماذا يكون لو طلبت منه يدك ؟ .

فابتسمت ابتسامة حزينة ، وقالت وهى تمس يده برفق :

ـ واأسفاه ياأسفينيس .. هل تظن أبى يقبل أن يزوج ابنته من الملك المظفّر الذى قهره وقضى عليه بالنفى من البلاد التى ولد فيها وتربّع على عرشها ؟ أنا أعرَف منك بأبى .. فليس هناك فائدة ترجى .. وليس لنا سوى الصبر .

وأصغى إليها مذهولا . وبدا لعينيه كل شىء قاتما . فقال بغضب :

ـ أصغر جندى من جنودى لا يهمل قلبه ، ولا يسمح لأحد بأن يفرق بينه وبين من يحب .

ـ أنت ملك يامولاى ، والملوك أثقل الناس واجبا .

ـ آه ما أشقانى .. لقد أحببتك منذ أول لقاء فى سفينتى .

فخفضت عينيها ، وقالت بصدق وبساطة :

ـ طرق الحب قلبى فى ذلك اليوم نفسه .. ولكنى لم أكتشفه إلا فيما بعد .. ليلة أجبرك القائد رخ على مبارزته .. وبت ليلتى حائرة مضطربة ..

ـ أواه .. كيف تكون حياتى بدونك ..

ـ كما تكون حياتى بدونك ياأسفينيس .

فضمها إلى صدره ، وألصق خدها بخده ..

وطرق كل سبل الفكر يرجو حلا ، فاعترضه اليأس والقهر .. وأحس كل منهما أنه قد آن أن ينفصلا .. ولكن لم يحرك أحدهما ساكنا ، فلبثا كشىء واحد .

٢٩

غادر أحمس سفينة الأسيرة ، تكاد لا تحمله قدماه . وكان ينظر إلى شىء فى كفه ، ويتمتم : « أهذا كل ما تبقى لى من حبى ؟ » وكانت سلسلة العقد الزمردى هى التى تبقت له من حبه ، أهدتها إليه الأميرة تذكارا ، واحتفظت بالقلب لنفسها : وركب الملك عجلته ، ومضى إلى معسكر جيشه ، واستقبله رجاله . وكان الحاجب حور يختلس منه نظرات قلقة مشفقة .

ودعا الملك برسول أبوفيس ، وقال له :

ـ أيها الرسول ، لما كانت غايتى أن أحرر وطنى من سيطرتكم ، وهو مارضيتم به ، فقد اخترت الحل السلمى حقنا للدماء . وسنتبادل الأسرى فى الحال . ونطوى هذه الصفحة السوداء فى تاريخ بلادى .

فأحنى الرسول رأسه ، وقال :

ـ نعم الرأى أيها الملك .

فقال أحمس :

ـ الآن ، سأترككم لتتباحثوا معا فى تفاصيل التبادل والجلاء .

وقام الملك ، فقام الجميع وقوفا ، وانحنوا له إجلالا . فحياهم بيده وغادر المكان.

٣٠

فى مساء ذلك اليوم ، تم تبادل الأسرى . ففتح باب من أبواب هواريس ، وخرجت منه جماعات الأسرى المصريين ، رجالا ونساء . وكان يهتفون لمليكهم مسرورين . وذهب الأسرى الرعاة ، وعلى رأسهم الأميرة أمنريدس ، إلى المدينة فى سكون ووجوم .

وفى غداة اليوم التالى ، بكّر أحمس وحاشيته إلى هضبة قريبة تشرف على أبواب هواريس الشرقية ، ليشهدوا خروج الرعاة من آخر مدينة مصرية . وكانوا لا يخفون فرحهم وابتهاجهم . وكان القائد محب يقول :

ـ عما قليل ، يأتى حجاب أبوفيس بمفاتيح هواريس ليسلموها إلى جلالة الملك ، كما سلمت مفاتيح طيبة إلى أبوفيس قبل أحد عشر عاما .

وجاء الحجاب كما قال القائد محب ، وقدموا إلى أحمس صندوقا من خشب الأبنوس ، رصت به مفاتيح هواريس . فتسلمه الملك وأعطاه حاجبه حور . ورد تحية الرجال الذين عادوا من حيث أتوا ، فى سكون وصمت .

ثم فتحت الأبواب الشرقية على مصاريعها . وبرزت أولى جماعات الرعاة الخارجين ، وكانت من الفرسان المدججين بالسلاح ، جعلهم أبوفيس فى المقدمة ، لاستطلاع الطريق المجهول . وتبعتها جماعات النساء والأطفال يمتطون ظهور البغال والحمير ، وبعضهن يُحملن فى الهوادج . واستغرق خروجهن ساعات طويلة . ثم بدا ركب عظيم ، يحيط به الفرسان من رجال الحرس ، تتبعه عربات كثيرة تجرّها الثيران . إنه ركب أبوفيس وآل بيته . فخفق قلب أحمس لمرآه . وقاوم دمعة حارة . وتساءل : تُرى فى أى مكان هى ؟ وهل تحاول البحث عنه كما يحاول ؟ وهل تذكره بمثل ما يذكرها به ؟ وهل تكتم دمعها كما يكتم دمعه ؟ . وتابع الركب بناظريه . ومازال يتبعه ببصره وفؤاده ، ويحوم حوله بروحه ، حتى غيّبه الأفق ، وابتلعه الغيب .

استيقظ الملك على صوت حور ، وهو يقول :

ـ فى هذه الساعة الخالدة ، تسعد روح مليكنا سيكننرع وبطلنا المجيد كاموس ، ويكلّل كفاح طيبة ـ التى لا تعرف اليأس ـ بالفوز المبين .

دخل جيش الخلاص هواريس الجبارة ، واحتل أسوارها المنيعة . وأمر أحمس أن يصلى الجيش صلاة جامعة للرب آمون .

ثم دعا أحمس رجاله إلى الاجتماع به ، وقال لهم :

ـ اليوم تنتهى الحرب . ولكن الكفاح لم ينته . فالسلام أشد حاجة من الحرب إلى يقظة النفوس وقوة العزائم . فهيا معا لنبعث مصر بعثا جديدا .

وبعد أن اختار لأعوانه مواقعهم الجديدة فى معركة السلام ، قال لهم :

ـ والآن عودوا إلى طيبة عاصمة ملكنا ، ليؤدى كلٌّ منكم واجبه الجديد فى موقعه الجديد .

فتساءل حور قلقا :

ـ ألا يعود فرعون على رأس جيشه إلى طيبة .

فقال أحمس ، وهو يهم قائما :

ـ بل ستقلع بى سفينتى إلى الجنوب ، لأزف بشرى النصر إلى أسرتى ، ثم أعود معها إلى طيبة ، فندخلها جميعا ، كما تركناها جميعا ...

٣١

أقلعت السفينة الفرعونية . وكان أحمس ملازما المقصورة ، ينظر إلى الأفق البعيد بوجه جامد وعينين غارقتين فى الحزن والأسى . واستغرقت الرحلة أياما . ثم لاحت دابور الصغيرة ، وكانت الأسرة الفرعونية قد انتقلت إليها لتكون قريبة من الحدود ، لتتلقى أخبار القتال فى مدّة أقل من قبلُ .

ورسا الأسطول على شاطئ المدينة عند الأصيل . وغادره الملك وحرسه ، وهرع إليهم جمع من النوبيين .

ساروا بين يديه إلى دار الحاكم رءوم . وفوجئ الحاكم والأسرة الفرعونية

بوصوله . وعقدت الدهشة والفرحة ألسنتهم . وصاح الجميع صيحة البهجة والسرور وهرعوا إليه . وكانت أسبقهم الملكة الصغيرة نيفرتارى . فقبّل خديها وجبينها ، ثم أمه الملكة ستكيموس مادة ذراعها ، فضمها إلى صدره ، وأسلم لها خديه تقبلها بحنان . وكانت جدته الملكة أحوتبى تنتظر دورها ، فدنا منها ، وقبّل يديها وجبينها .

وأخيرا رأى توتيشيرى .. كبيرة القوم وأعزهم ، فخفق قلبه ، وأحاطها بذراعيه وهو يقول :

ـ أماه وأم الجميع .

فلثمته بشفتيها النحيلتين ، وقالت وهى ترفع إليه عينيها :

ـ دعنى أنظر صورة سيكننرع .. الحية .

فقال أحمس :

ـ اخترت أن أكون أنا الرسول الذى يبشرك بالفوز العظيم ياأماه . جيشنا الباسل حقق النصر المبين ، وهزم أبوفيس وقومه ، وطردهم إلى الصحراء التى جاءوا منها ، وحرر مصر جميعها .

فتهلّل وجه توتيشيرى ، وقالت بفرح :

ـ اليوم ينتهى أسرنا ونعود إلى طيبة ، وأجد حفيدى على عرش سيكننرع يعيد عهد امنمحيت المجيد .

وجاءت وصيفة الملكة تحمل ولى العهد بين ذراعيها ، فرفعه الملك بين يديه ، من فمه حتى التصقت به شفتاه، وابتسم امنحتب لأبيه، وعابثه بيديه الصغيرتين.

ثم دخلت الأسرة الفرعونية القصر تشملها السعادة والطمأنينة ـ وخلوا إلى أنفسهم يتسامرون ويتذاكرون أيامهم .

٣٢

حمل الجنود متاع الأسرة إلى السفينة الفرعونية . وانتقل الملك والأسرة إليها . وخرج لوداعهم الحاكم رءوم وأعضاء حكومته وأهل دابور جميعا . وقبل أن تقلع السفينة ، قال أحمس لرءوم على مسمع من رجاله :

ـ أيها الحاكم الأمين ، أوصيك خيرا بالنوبة وأهل النوبة . فالنوبة كانت مهجرنا حين ضاقت بنا الدنيا ، ووطننا عندما لم يكن لنا وطن ، وقاعدة سلاحنا وجنودنا عندما دعا الداعى إلى الكفاح . فلا تنس فضلها ، ولتكن منذ اليوم مصر الجنوب .

ثم أقلعت السفينة ، تشق طريقها نحو الشمال ، وتحمل قوما تهفو نفوسهم إلى مصر وأهلها . وبلغت السفينة حدود مصر بعد رحلة قصيرة . فاستقبلت استقبالا رائعا ، وخرج إليها رجال الجنوب يتقدمهم الحاكم شاو . وأحاطت بها زوارق الأهالى يهنئون ويهتفون ، وصعد إلى سطحها شاو وكهنة بيجة وعمد القرى وشيوخ البلاد ، ينحنون للملك ويحيون . ثم انحدرت السفينة إلى الشمال ، يستقبلها الأهلون على الشواطئ ، وتطوف بها القوارب ، ويصعد إلى سطحها عند كل بلدة الحكام والقضاة والعمد والأعيان .

واصلت السفينة سيرها أياما ، حتى لاحت فى الأفق البعيد أسوار طيبة العالية ، وأبوابها الضخمة ، وجلالها الخالد . وكان الوقت عند طلوع الفجر . فهرعت الأسرة من المخادع إلى مقدمة السفينة ، يتجلى فى نظرهم الشوق والحنين ، وتفيض أعينهم بدموع الفرح والشكر ، وتغمغم شفاههم فى صوت خافت « طيبة .. طيبة » .

أخذت السفينة تقترب من جنوب طيبة . فاستطاعوا أن يروا جموعا من الجنود وكبار القوم ، ينتظرون على الشاطئ .

رست السفينة ، وأدى الجنود التحية العسكرية لها . وصعد إلى سطحها رجال طيبة ، وعلى رأسهم رئيس الوزراء حور ، ومعهم كاهن طاعن فى السن يتوكأ على عصاه ، ويمشى منحنى القامة وبخطى ثقيلة .

ألقى حور كلمة تحية « لمحرر مصر ومخلّص طيبة وقاهر الرعاة .. فرعون مصر وسيد الجنوب والشمال » . ثم أشار إلى الكاهن الجليل ، وقال :

ـ ائذن لى يامولاى ، أن أقدم إلى جلالتك نوفرآمون الكاهن الأكبر لمعبد آمون .

فنظر إليه أحمس باهتمام ، ومدّ له يده مبتسما ، وقال باحترام :

ـ يسرنى أن أراك أيها الكاهن الأكبر .

فلثم الكاهن يده ، وقال :

ـ كنت يامولاى قد آليت على نفسى ألا أبرح حجرتى ، مادام فى مصر رجل من

الرعاة الذين أذلوا طيبة ، وقتلوا سيدها المجيد وأهملت نفسى ، وقنعت من الدنيا بلقيمات وجرعات من الماء القراح . ومازلت حتى قيّض الله لمصر ابنه أحمس ، فحمل على عدونا ، وهزمه ، وطرده من بلادنا ، فأطلقت سراح نفسى لأستقبل الملك المجيد وأدعو له .

فابتسم الملك له . وقال حور لمولاه :

ـ طيبة تنتظر مولاها ، والجيش مصطف فى الطرق ، ولكن لكاهن آمون الأكبر رجاء .

فسأل أحمس :

ـ وما رجاء كاهننا الأكبر؟ .

فقال الكاهن باحترام :

ـ أن يتفضل مولاى بزيارة معبد آمون ، قبل أن يذهب إلى القصر الفرعونى .

فأجاب أحمس مبتسماً :

ـ بكل السرور والسعادة .

٣٣

غادر أحمس السفينة ، تتبعه الملكات ورجال مملكته . وصعد إلى هودج جميل ، واعتلت الملكات هوادجهن . وسارت فى الأمام فرقة من الحرس الملكى ، وفى الخلف عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكى . واتجه الموكب نحو باب طيبة الجنوبى. وكان مزينا بالأعلام والزهور، يصطف على جانبيه الجنود الأشداء.

اجتازت الهوادج الفرعونية باب المدينة. ونفخ الحراس فوق الأسوار فى الأبواق ، وتساقطت على الداخلين الزهور والرياحين.

وضج الجو بالهتاف الصاعد من القلوب .. وافتتن الناس برؤية الأم المقدسة فى مهابة الشيخوخة ، وحفيدها الباسل فى عنفوان الشباب . وشق الموكب طريقه كأنما يخوض بحرا من البشر.

وعلى باب المعبد ، استقبل كهنة آمون الملك وأسرته . وساروا بين يديه إلى بهو

الأعمدة ، حيث قُدمت القرابين على المذبح ، وأنشد الكهنة نشيد الرب بأصوات عذبة رخيمة . ثم قال الكاهن الأكبر للملك :

ـ مولاى ، أستأذنك فى الذهاب إلى قدس الأقداس ، لأحضر أشياء ثمينة تهم جلالتكم .

أذن له الملك . ومضى الرجل ومعه نفر من الكهنة . وغابوا قليلا . ثم عاد الكاهن يتبعه الكهنة ، يحملون تابوتا وعرشا وصندوقا من الذهب ، وضعوها جميعا أمام الأسرة الفرعونية باحترام وإجلال . وتقدم نوفرآمون ، ووقف أمام أحمس ، وقال بصوت ساحر نفاذ :

ـ مولاى، هذه أثمن مخلفات المملكة المقدسة. عهد بها إلىّ، منذ اثنى عشر عاما، القائد الباسل الخالد الذكر بيبى، لتكون فى مأمن من أن تصل إليها يد العدو الجشع.

أما التابوت ، فهو تابوت الملك الشهيد سيكننرع ، يحفظ جثته المحنطة ، التى اشتملت على جروح بالغة ، كل جرح منها يسجل صفحة خالدة للبسالة والتضحية .

أما العرش ، فهو عرشه المجيد ، وأعلن عليه كلمة طيبة الأبية ، وآثر أهوال الكفاح على ذل السلامة .

أما هذا الصندوق الذهبى ، فيحتوى على تاج مصر المزدوج ، تاج تيمايوس آخر ملوكنا الذين حكموا مصر المتحدة . وكنت أهديته لسيكننرع وهو خارج لقتال أبوفيس . فخاض غمار المعركة وهو على رأسه الكريم ، ودافع عنه الدفاع الذى يعرفه الجميع .

هذه يامولاى ودائع بيبى المقدسة ، أحمد الرب أن مدّ فى عمرى حتى ـ رددتها إلى أصحابها . داموا للمجد ، ودام لهم .

وتحولت أبصار الجميع إلى التابوت ، ودنا الملك وأسرته منه وأحاطوا به . وأحست توتيشيرى ، لأول مرة ، بالضعف والتخاذل واستندت إلى ذراع الملك ، وقد تساقطت دموعها . فأشفق حور عليها ، وقال لنوفرآمون :

ـ أيها الكاهن الأكبر ، احتفظ بهذا التابوت فى قدس الأقداس ، حتى يودع فى مقبرته ، باحتفال مهيب يليق بصاحبه .

فاستأذن الكاهن مولاه ، وأمر رجاله برفع التابوت إلى مثوى الرب المعبود .

وفتح الكاهن الصندوق ، وأخرج منه تاج مصر المزدوج . ودنا من أحمس في إجلال ، وتوّج به رأسه . فهتف القوم جميعا : « عاش فرعون مصر » .

ثم صلى الجميع للرب المقدس صلاة الشكر والحمد أن هيّأ لهم الفوز ، وردهم إلى وطنهم ظافرين .

٣٤

جاء المساء وخيم الليل وطيبة لاتنام . وظلت ساهرة ترتفع المشاعل فى طرقاتها وضواحيها ، ويجتمع الناس فى ميادينها ينشدون ويهتفون .

لم يوات النوم أحمس فى تلك الليلة ، رغم ما به من تعب وإجهاد . فخرج إلى لشرفة المطلة على حديقة القصر . وجلس على أريكة وثيرة فى ضوء مصباح خافت . رسبحت روحه فى الظلام حوله . وكانت أنامله تعبث بسلسلة ذهبية بحنوّ وإشفاق ، ينظر إليها بين الفينة والفنية ، كأنه يستمد منها أفكاره وأحلامه .

لحقت به على غير انتظار ، الملكة الشابة نيفرتارى . وكان الفرح يبعد النوم عن عينيها . وظنت أن زوجها فى مثل سرورها . فجلست إلى جانبه مبتهجة منشرحة لصدر . وتحوّل الملك إليها مبتسما . فوقع بصرها على السلسلة فى كفه . فتناولتها لدهشة ، وقالت :

ـ هذا عقد؟ ما أجمله .. ولكنه ناقص ..

فقال وهو يجمع أشتات فكره :

ـ نعم .. ضاع قلبه .

ـ واأسفاه .. وأين ضاع ؟ .

ـ لا أدرى .. ولكنه ضاع على غير إرادتى .

فنظرت إليه بمودة وسألته :

ـ أكنت تنوى أن تهديه إلىّ .

ـ إنى أدّخر لك ما هو أثمن وأجمل .

ـ فكيف إذن تأسف عليه ؟ .

صفحة فارغة

فقال ، وهو يجهد نفسه ، لكى يخرج صوته طبيعيا هادئا :

ـ إنه يذكّرنى بأيام الكفاح الأولى .. حين خرجت متخفيا فى ثياب التجار ، مسميا نفسى أسفينيس . فكان هذا العقد بين ما أعرضه على الناس للشراء . فياللذكرى الجميلة .. نيفرتارى ، أود أن تناديني أسفينيس .. فهو اسم أحبه ، وأحب عهده ، وأحب من يحبه .

وأدار الملك وجهه ، ليخفى ما ارتسم عليه من التأثر والحنين . فابتسمت الملكة بسرور . ولاحت منها نظرة إلى الأمام ، فرأت على البعد ضوء مشعل يتحرك فى بطء ، فقالت وهى تشير بيدها :

ـ انظر إلى هذا المشعل .

فنظر أحمس إلى حيث تشير ، ثم قال :

ـ هذا مشعل فى قارب يسبح قريبا من الحديقة ..

وكان صاحب القارب قد تعمد أن يقترب من حديقة القصر ، ليسمع أهله القادمون جمال صوته ، فيحييهم وحده بعد أن حيتهم طيبة جميعها .

وكان صوته جميلا يأخذ بالسمع . فأنصت أحمس ونيفرتارى . وكانت الملكة تنظر إلى ضوء المشعل بعطف وحنان . وكان الملك ينظر إلى مابين قدميه بعينين شبه مغمضتين ، « تنوح » فى قلبه الذكريات .

الروايـة التاليـة

أمام العرش

رقم الإيداع : ٨٩/٨٦١٥
الترقيم الدولي : ٤ - ٣٣٧ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣